المحاضرة الأولى
الحياة الاجتماعية في العراق خلال العهد العثماني

١ـ القبائل في العراق:

كانت القبائل العربية تقطن العراق قبل ظهور الإسلام منذ عصور بعيدة من السنين وبعد الفتح العربي الإسلامي توجهت عشائر كثيرة عدنانية وقحطانية من شبه الجزيرة العربية إلى ضفاف الفرات ، ومن العشائر العدنانية التي اشتهرت فيما بعد في العراق، عي عشائر عنزة ، والضفير، وحرب، والمتفك، وربيعة، وكعب، وقس، وعادة، وتميم، ومن العشائر القحطانية التي ذاع صيتها عشائر إلزبيد، والعشائر الطائية ، وما يتصل بها من فروع وأفخاذ، وفد أسست مجموعة من هذه العشائر أحلافا وأمارات عربية وهفت في وجه المحتلين وناضلت من أجل استقلال العشيرة عن السلطة الحاكمة الأجنبية .

وتنقسم القبائل العراقية إلى قسمين :

القسم الأول : العشائر البدوية الصرفة التي كانت تهيم في حيز غير محدود من الأراضي وتعتمد على تربية الأبل في معيشتها . وقد أشار الفرنسي سوفبوف إلى أن البدو الرحل يعيشون في الصحاري وهم منقسمون إلى قبائل ويمارسون تربية المواشي بشكل رئيس ، وتشكل الخيول والحمير والماعز والأغنام ثروتهم .

القسم الثاني : العشائر شبة المستقرة التي كانت تعتمد في معيشتها على تربية المواشي ، أو حراسة البضائع أو نقلها .

كان حوالي ثلث العشائر تقريباً يعيش أو يتجول في المنطقة المطرية في الشمال ، بينما كانت بقية العشائر تقطن أو تتنقل في أواسط العراق وجنوبه حيث المنطقة الأروائية . من أن الحسابات النهائية لدوائر الجمرك في العراق كانت تجري وفق القروش العثمانية ، وصفقات التمور كانت تتم بموجب عملية تسمى (الشامي) كانت قد انقرضن منذ أواخر القرن الثامن عشر إلا إنها ظلت كأساس لبيع التمور.

لقد حاولت الدولة العثمانية في عديد من المرات إنهاء الوضع المرتبك لفوضى العملة الأجنبية في العراق، وذلك عن طريق تحديد تداولها وتخفيض أسعارها، ولكنها فشلت في مسعاها، لأن النقود سرعان ما كانت تتحول إلى سلع يجري تصديرها لاحتوائها على كمية من الذهب تزيد أحانا على السعر المحدد لها، وعند ندرة العملات في الأسواق كانت الدولة تضطر إلى التوقف عن ملاحقة قراراتها لتعود ثانية إلى أوضاعها وليعود التجار والصيارفة إلى مبادلاتهم المعقدة. ويبدو أن التعقد لم يقف عند حد الأسواق فحسب، وإنما شمل الدوائر الرسمية وبخاصة دوائر الجمرك التي لم تكن تقبل في معاملاتها إلا الليرات الذهبية العثمانية ، وفي حالات نادرة جدا كانت تقبل النقود الذهبية الأخرى وعلى أساس أسعارها الخاصة، كما أنها كانت ترفض استلام جزاء الليرة بالعملات الفضية أو النحاسية، وإنما على التاجر أن يقدم لها الليرات الصحيحة، ولو كان حسابه يزيد قرشا واحدا على الليرة الصحيحة، وفي مثل هذه الحالة كان يقدم ليرة ذهبية أخرى ليستعيد بقية أجزائها بالقروش، وفن جداول الدائرة التي تقل عن أسعار السوق كثيرا. ومن جهة أخرى فأن دوائر التلغراف والبريد والضرائب العثمانية كانت تقبل المجيدي

العثماني الفضي في معاملاتها، لكنها تقبله على أساس تسعة عشر قرشا وربما أكثر أحيانا. هذا وان مكتب البريد البريطاني كان لا يقبل هو الآخر سوى الباون الإنكليزي أو الروبية الهندية وبموجب حسابه الخاص . أما دائرة التلغراف البريطاني في العراق فأنها كانت لا تقبل إلا الفرنك الذهبي الفرنسي، وإذا قدمت عملة أخرى فيتم معادلتها بأسعار الفرنك الرسمية.

جهة أخرى كانت سهول أربل ووديان سليمانية تضم أكبر عدد من القبائل الكردية المستقرة في أعالي الجبال كانت تستقر وتتجول القبائل المتنقلة والمشتغلة في الرعي. أما سهول الجنوب والوسط فأنها كانت موطأ للقبائل العربية المتنقلة وشبه المستقرة، وقسم من هذه العشائر كان ينتقل بين بغداد والعمارة بمحاذاة نهر دجلة ، ويعيش قسم منها في الصحراء الممتدة بين الفرات ونجد، وهذه العشائر برمتها كانت تسكن الخيام ونعتمد على تربية الخيل والجمال وتحتفظ بمراعيها الخاصة تتجول فيها بحثا عن الكلا والماء، ولم تترك هذه العشائر أماكنها طالما كانت الماشية تجد ما تأكله من عشب وما تشربه من ماء.

إن العشائر العربية في العراق حافظت، باستقلاليتها، على وجه العراق العربي.

ووقفت بشموخ في وجه الغزاة المحتلين من مغول وجلائريين، وتركمان ، وصفريين ، ومنعتهم من توسيع نفوذهم خارج المدن التي أحتلوها، حتى سقطت بغداد بيد العثمانيين عام ١٥٣٤م ، وهؤلاء حاولوا فرض سيطرتهم على الأطراف وإخضاع العشائر لهيمنتهم ، إلا أن كثيرا من القبائل لم ترضخ للمحاولات القسرية للدولة العثمانية بل وقاومتها ، حتى اضطر ت الدولة الى مهادنة بعضها والاعتماد عل بعضها الآخر في حروبها.

إن من الصفات التي اشتركت بها القبائل فى العراق هي الانتقال من مكان إلى أخر ، سواء كان ذلك بشكل واسع أو محدود فمن ديرة القبيلة وكذلك الزعامة الرئيسية حيث كان يتزعم القبيلة الام شيخ رئيس له صلاحيات واسعة منها اتخاذ القرار بالارتحال من مكان أخر وعندما كانت القبيلة تنوي الانتقال كان يعقد اجتماع في خيمة الشيخ الرئيس حيث يتم الاتفاق على تحديد يوم التحرك وموضع النزول الجديد، وحين الوصول إلى المكان المتفق عليه يختار شيخ القبيلة محل نزوله وتحدد كل أسرة مكان خيمتها ثم يجري اقتسام المرعى على أساس عدد الماشية، ولذلك فأن أحسن الأقسام كانت تخصص لأفراد القبيلة المتنفذين الذين يملكون عددا أكبر من الجمال والخيل، أما تدبير شؤون المخيم فكان يقع بالدرجة الأولى على النساء حيث كن يقمن بأكثر الأعمال صعوبة فهن اللواتي يحلبن الماشية ويغزلن الصوف وينسجن البسط بالإضافة إلى نصبهن الخيام .

المحاضرة الثانية

كانت الخيمة في العادة تنقسم إلى قسمين احدهما للرجال والآخر للنساء ، ويضم النصف الأول السلاح والسروج ، في حين أن النصف الثاني يستخدم للنوم ويشعل كمطبخ ومستودع للمؤنة حيث تخزن فيه أكياس المؤون وكافة اللوازم الضرورية، من جرن خشبي لطحن البن ، وعدد من الدلال والفناجين وأواني وملاعق خشبية ورحي ومجمرة وقرب للماء والحليب . وكانت الحياة اليومية لأفراد القبائل قاسية جداً فطعامهم كان يتألف من الرز والدخن والشعير والحنطة ، وكانوا يتزودون بها من المدن مرة أو مرتين في السنة بمبادلتها بالمنتجات الحيوانية ، أما اللحم فكان بالنسبة لهم ترفاً لا يأكل إلا في المناسبات ، كما أن ظروف الحل والترحال ظلت كما هلي لم تتبدل طيلة قرون عديدة وكثيراً ما نشبت العداوات والمنازعات بين القبائل من أجل امتلاك المراعي ، وسرعان ما كانت تلك المنازعات تتحول إلى صراعات دموية تشمل عدداً غير قليل من القبائل المتحالفة بعضها مع البعض الأخر ، وأن الكوارث الطبيعية (كالجفاف والبرد) كانت هي الأخرى تؤدي إلى إيقاع الضرر بأفراد القبائل وممتلكاتها من الأيل والماشية الأخرى .

لقد اتسعت المنازعات بين القبائل في العراق في نهاية القرن التاسع عشر بسبب : فشل السلطة العثمانية الضعيفة في فرد هيمنتها على العشائر العراقية ، لذا كانت القبيلة الأقوى تخضع الأضعف ويتخذ هذا الخضوع شكل الحماية وتقوم القبيلة المحمية بدفع الإتاوة وتسمى (الخوة) لمن يحميها ، لذلك ظلت التجمعات القبلية مثل المنتفك وبني لام والخزاعل وربيعه وحدة سياسية كاملة حتى نهاية السيطرة العثمانية على العراق ومن جهة أخرى خضعت منطقة شمالي العراق لعدد من رؤساء العشائر الكردية بعد الاحتلال المغولي لبغداد عام ١٢٥٨م ، وأسس كل من هؤلاء إمارة سميت بأسم عشيرته رغم انضواء عشائر أخرى تحت لوائه ، وظلت هذه الأمارات تتأرجح في نفوذها وقوتها ، حتى اشتهرت منها في العهد العثماني : الأمارة الصورانية في هوديان ثم حرير ، واخيراً في راوندوز ، الأمارة البابانية في السليمانية ، والأمارة البهدنانية في العمادية ، والأمارة البوتانية في جزيرة أبن عمر ، ولم تستطيع أمارة واحدة من هذه الأمارات العشائرية أن تفرض سيطرتها على الأمارات الأخرى جميعا .

لقد اتسمت نظرة العثمانيين تجاه العشائر بالشك العميق ، لقد درج موظفو العاصمة العثمانية والولايات على استخدام أوصاف الذم والاستخفاف بحق العشائر ، إذ نظروا تجاههم أنهم مجرد أناس غارقين بالجهل ، وذوي سلوك همجي وغير متحضر . لقد كانت نظرة الدولة العثمانية إلى القبائل بوصفها خطراً بالغ الفعالية على الرفاه الاقتصادي للسلطنة ، من حلال التهرب من دفع الضرائب . فالقبائل في الواقع شكلت عبئاً على الخزينة من ثلاث طرق هي :

١- انخفاض قدرة المنتجين على دفع الضرائب أثر إغارة القبائل على المزارعين وسكان البلدات .

٢- التخوف من الغارات أدى إلى تراجع الإنتاج الاقتصادي نتيجة لتقلص مساحة الأرض المزروعة فضلاً عن إعاقة التجارة .
٣- ارتفاع كلفة القوات المسئولة على الأمن التي وقف على عاتقها درع مثل تلك الغارات .

سعى العثمانيون للعمل على تغيير طبيعة القبائل عبر توطينهم في الأرض وتشجيعهم على الإنتاج وبالتالي الاسهام في زيادة عائدات الدولة بدلاً من استنزاف الخزينة .

لقد عمل السلطان عبد الحميد الثاني بسياسة تعزيز الولاء القبلي لصالح السلطنة من خلال إنشاء مدرسة للعشائر في اسطنبول ، وهي بمثابة مدرسة داخلية خاصة لتعليم أبناء زعماء القبائل البدوية العربية . وقد كانت هذه المدرسة أداة سياسية لكسب ولاء القبائل ، وقد تم افتتاح المدرسة في ٤ تشرين الأول ١٨٩٢. ومن العراق أرسل طلاب من أبناء العشائر المختلفة مثل شمر وربيعه وزبيد والدليم ، والسعدون ، والسواعد ، وبني لام ، والمياح .

٢- القرى الزراعية :

كانت الأكثرية الغالبية من سكان العراق في مختلفة الفترات من الفلاحين من سكنة الريف ، لأن جميع الذين يكسبون معاشهم من الرعي أو الزراعة يدخلون ضمن تعريف أهل الريف ، وعلى الرغم من ارتفاع نسبة المزارعين من سكان العراق بحيث بلغت مع أواخر الحكم العثماني أكثر من (٦٠%) نظرا للاستقرار بعض القبائل البدوية واشتغالها في الزراعة إلا أنه بالامكان القول أن مستوى الإنتاج الزراعي أخذ بالانخفاض لأسباب عديدة منها :

علاقة الفلاح بالأرض ولان المزارع الجديد كان قليل الخبرة كثير الميل إلى التنقل ، أضف إلى ذلك اسمرار تأخر أساليب الزراعة ووسائل الإنتاج ورداءة طرق المواصلات وبخاصة في أيام الشتاء الموحلة وكانت الزعامة أو الرئاسة في تلك القرى بيد الاغا أو الشيخ أو المختار وكثيرا ما استغل أحد هؤلاء سلطانه للاستيلاء على أرض الفلاح الصغير، وبالنتيجة على القرية كلها رغم مخالفة ذلك لقانون الأراضي العثماني، إلا أن السلطات العثمانية قد سكتت عن خرق، الأغا للقانون خشية جانبه، وقد سادت هذه الطريقة في مناطق كثيرة في العهد العثماني ، حتى أصبح الفلاح بعدها عاملا مأجورا للأغوات دون أن يكون له أية حصة في غلة الأرض .

منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبسبب تصدع النظام القبلي تدريجيا وإسكان العشائر ونشر الأمن في العراق أخذت ملكية الارض تتوزع بين المتنفذين من الشيوخ والأغنياء من سكان المدينة.

من جهة أخري يمكن أن نشير أيضا الى سكان الأهوار في جنوب العراق ، يعيشون في جزر صغيرة جدا منها طبيعية ومنها اصطناعية يشيدون عليها بيوتهم البدائية المصنوعة من القصب والبردي اللذين كانا ينبتان بكثرة فيها ، والاهوار بصورة عامة كانت ضحلة لا يزيد معدل عمق مياهها عن ثلاث أقدام كما أن قسما من مياهها كان يجف في بعض السنين حتى يصبح السير فيها الأقدام ممكنا، وكان النقل فيها يتم

بواسطة قوارب خاصة تسمى (المشاحيف) ، وقد ارتزت الأهالي في المنطقة الجاموس وزراعة الرز وصيد السمك وكان الجاموس يؤلف ثروة كبيرة للأهالي إلا إن حياة السكان كانت قاسية للغاية ، وطرق معيشتهم بدائية ونستطيع القول بأنهم كانوا يعيشون على هامش الحياة معرضين في كل لحظة لفتك ألامراض والأوبئة وبخاصة الملاريا.

المحاضرة الخامسة

ج. العامل التجاري:

إن استقرار الحياة الحضرية في المدينة العراقية منذ مطلع القرن الثامن عشر وتعاظم أهمية أنشطتها الاقتصادية والاجتماعية، قد زاد من حدة التباين والاختلاف بين الإنتاج الريفي البسيط المرتكز على الزراعة، وإنتاج المدينة القائم على الصناعة و التجارة . وكلما ازداد هذا التباين، ظهرت الحاجة إلى أسواق تباع فيها منتجات الريف إلى حد سواء، وتتوفر فيها ما تحتاجه القبائل الرعوية والمزارعة، وما يحتاجه التجار والصناع في المدينة ذاتها. وقد ساعدت هذه الحاجة الاقتصادية الناشئة على تشييد مخازن الحبوب والأصواف ، المنشآت الدينية كالمساجد ، فأدى ذلك إلى ظهور بعض المدن داخل المناطق الزراعية وعلى الحدود بينها وبين البادية ، وشجع استقرار بعض القائل التدريجي على نمو هذه الأسواق وازدهار الحركة التجارية فيها، ومن الأمثلة على المدن التي نشأت بهذه الطريقة ، مدينة (سوف الشيوخ) التي مازال اسمها يدل على الوظيفة التي كانت أساس وجودها، وقد عرفت هذه المدينة أول الأمر بسوق النواشي ، حيث كان أفراد قبيلة النواشي وبعض القبائل الرعوية الأخرى يحصلون على ما يحتاجون من الطعام والبضائع من هذه السوق قبل ر حيلهم إلى البادية. ويدو أن هذه السوق كانت موسمية، فقد خلت كتابات الرحالة من أي ذكر لها وعندما استقر ال سعدون ، وهم شيوخ المنتفك في المنطقة، واخذوا يترددون عليها اشتهرت هذه السوق باسم سوف الشيوخ نسبة إليهم . وقد اتخذها هؤلاء على عهد الشيخ ثوينى في اوآخر القرن الثامن عشر مركزا ثابتا لهم، ومخزنا لذخيرتهم ومكانا لتجمعهم. وبالإضافة إلى نمو الأسواق باعتبارها مراكز تبادل تجاري بين الريف والمدينة فان حركة التجارة هده قد أدت أيضا إلى إحياء الطرق التجارية القديمة وتأمينها ضد اللصوص المعتدين، وتوفير الخانات اللازمة لتزول التجار، وخزن بضائعهم، وكانت حركة القرافل الدائبة تقتضي توفير أعداد من الادلاء والحراس والدواب لعدد كبير من التجار والمسافرين، كما تتطلب توفير وسائل الراحة من ماء وطعام، فكان طبيعيا أن تنشأ بعض القرى والمدن حول عدد من خانات الطرق، في أماكن مناسبة لتستطيع تقدم مثل هذه الخدمات الضرورية.

هذا وان بعض المدن قد شهدت في العهد العثماني تطورا ونموا منها مدينة اربيل، فقد احتلت المدينة موقعا جغرافيا مهما في القسم الشمالي من العراق، مما جعلها محطة رئيسة على طرق المواصلات، ففيها تمر اقصر الطرق البرية الرئيسية المهمة ، والتي كانت تربط المدن مع بعضها البعض. وقد ارتبطت اربيل مع مدن العراق بعدد من الطرق البرية الرئيسة المهمة، والتي كانت تتفرع منها طرق فرعية أقل أهمية . ومن المدن التي شهدت نمو في العصر العثماني الأخير نظر لموقعها التجاري مدينة الكوت . فقد ظهرت هذه المدينة في منتصف القرن الثامن عشر، لتكون ميناء نهريا ، لوقوعها على نخر دجلة عند تفريغ نخر الغراف فصارت مرفأ لاستراحة الملاحين ، وسوق للتزود بالطعام ، ومكان لتبديل السفن . وقد استطاعت تلك المدينة الناشئة من تثبيت وجودها سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، مما حدا

بالحكومة العثمانية إلى أن تجعلها قضاء تابع للواء بدرة وحصان عام ١٨٩٥ وحتى الحرب العلمية الأولى عام ١٩١٤.

رافق المدن تزايد الخدمات المرتبطة بها، فانتشرت الخانات والمحطات على مختلف الطرق ، ولاسيما في الاماكن التي تتباعد فيها المدن والقرى، ويصف الرحالة فيدريجي خان ضخم للتجار في بغداد فيه غرف لميت التجار، اذ يعرض فيه القسم الاكبر من بالقرب أولئك التجار الأجانب بضائعهم لغرض بيعها. ويتحدث الر حالة تخيرا عن كثرة الخانات في بغداد التي يقيم فيها التجار، وهي كثيرة الارتياد وتغلق كل الشوارع والخانات بسلاسل حديدية غليظة. وكانت على طريق النجف - وهو طريق الحجاج أيضا- مجموعة متصلة من الخانات الكبيرة، مثل خان الكهيا في الجنوب من بغداد، وربما كان في بغداد أكثر ٤٣ خانا. رخان أزاد، الذي أنشىء ليتسع لنحو خمسمائة شخص، وقد أحاطت بالخان قرية صغيرة سكانها الاعراب من اهل الناحية، وما تزال هذه القرية عامرة. ومن تلك الخانات المهمة أيضا، خان الاسكندرية المشيد في حدود عام 1800 م، وهو يتسع لألف شخص مرة واحدة، وتتوفر فيه كل وسائل الراحة في ذلك العهد، أما خان المحمودية فيرتقي إلى القرن (السابع عشر الميلادي) ويماثل خان الإسكندرية من حيث الفخامة والاتساع ومثله خان المحاويل، وفي اوائل القرن التاسع عشر كانت هذه الخانات قد تحولت جميعها إلى قرى تجارية مهمة يسكنها العرب، ويديرون فيها امورهم دون تدخل يذكر من جانب الحكومة المركزية وعلى طريق بغداد – كرمنشاة التجاري شيدت مجموعة من الخانات والمحطات، ومن أهمها خان بني سعد الذي أنشائه والي بغداد عمر باشا عام ١٦٨٨م ليتوسط المسافة بين مدينتي بغداد وبعقوبة، وهو شبيه بالخانات السابقة، وقد احاطت به، فيما بعد، بلدة صغيرة بعمل أهلها على توفير الراحة للمسافرين. وقد اشتهرت مدينة أربيل في العهد العثماني بخاناتها فقد صمم كل جزء من الخان هناك لكي يؤدي وظيفة معينة لها علاقة بتسهيل مهمة التجارة ومن يقوم بها ، إذ تمارس عملية الخزن وتبادل البضائع وإيواء التجار والمسافرين وحيواناتهم وكل ما هو شأنه أن يخدم هذه الأغراض ، ويمكن أن نميز هذه نوعين من الخانات في أربيل هي :

١- الخانات الواقعة في مركز المدينة ضمن منطقة السوق .

٢- الخانات الواقعة في أطراف المدينة .

فبالنسبة لخانات النوع الأول الكبيرة منها والصغيرة، فقد تركزت في سوق المدينة أو بالقرب منها وتعددت اختصاصات هذا النوع من الخانات فكانت للتجارة الداخلية والخارجية مأوى للتجار الغرباء ، والمسافرين ، ومخازن لبضائعهم . وبعض هذه الخانات مكونة من طابقين، وتكون عادة مزدحمة بالتجار، والقوافل التجارية. أما النوع الثاني من الخانات الموجودة في أطراف المدينة فهي لا تختلف عن النوع الأول، إلا من حيث الوظيفة ، والحجم، وطراز عمارته وموقعه. وقد ذكر الرحالة نيبور احد هذه الخانات التي تقع جنوبي قرية قوش تبة ويسمى خان عادلة نسبة إلى أبنه والي بغداد أحمد باشا الذي قام بحفر بئر وإقامة الخان في المنطقة لتسهيل سفر القوافل وسعاة البريد، وقامت ابنته عادلة خاتون بتوسيع هذا الخان

لتـأمين راحــة المســافرين، ولتطـوير المكـان سـمحت السـلطات بزراعــة ألأراضــي المحيطة بالخان لكل من يرغب من سكان المنطقة.

النزاعات الداخلية في المدن:

كانت المدن تتألف من عدد من المحلات ألصغيرة والتي كثيرا ما كانت تنشب بين أفرادها نزاعات عديدة وقد برزت هذه الظاهرة بشكل واضح في العهد المملوكي. فقد جرت العادة في عهد المماليك انه حين ينشب نزاع بين فريقين منهم على الحكم تنتقل عدوى النزاع إلى سكان بغداد، فكل فريق من المماليك يستنجد عند النزاع بأصدقائه من رؤساء المحلات وهؤلاء بدورهم يستصرخون أهل المحلة ، فتهت المحلة بسلاحها للقتال إلى جانب الفريق الذي أستنجد بها ، وبهذا تنقلب ميادين بغداد ودروبها إلى ساحات حرب .

المحاضرة السادسة

ولنا في المعارك المحلية التي نشبت في بغداد في أعقاب وفاة عبد الله باشا عام ١٧٧٧ مثالا ، فيعد وفاة هذا الوالي المملوكي بدأ التنافس على الحكم بين عجم محمد وإسماعيل أغا الكهية وانقسمت محلات بغداد إلى فريقين متناحرين كل فريق منها يؤيد احد المتنافسين ، فقد وقفت محلات الفضل والمهدية والقراغول والميدان إلى جانب عجم محمد ، بينما وقفت محلات رأس القرية وباب الشيخ والشورجة إلى جانب إسماعيل أغا .

وقد انحاز المماليك إلى اسماعيل أغا بوجه عام أما الانكشارية فقد انقسموا إلى فريقين ، وانحاز الجنود المحليون إلى من كان يدفع لهم مالا أكثر وصار كل فريق يكتب العرائض ويجمع التواقيع ويبعثها الى السلطان في سبيل تدبين مرشحه واليا على بغداد بدلا من مرشح خصمه.وقد حاول سليمان بك الشاوي رئيس العبيد تهدئة الحالة وكان ذا منزلة محترمة لدى مختلف الطبقات في بغداد ، فارتأى أن يخرج المرشحان كلاهما من بغداد حتى ينجلي الوضع . فوافق على ذلك إسماعيل اغا غير ان عجم محمد أبى وعاند. وكان اهل الميدان من اشد أنصار عجم محمد، وقد استنجد بصديقه احمد اغا رئيس اللآوند الذي كان في بعقوبة فأنجده بجماعة كبيرة من اللآوند ، وقد جاء هؤلاء فخيموا تجاه مقبرة الشيخ عمر فتقوى بمجيئهم أهل محلة الميدان. ومن الجانب الأخر تقوى إسماعيل اغا بانضمام سليمان باشا الشاوي وعشيرة العقيل إليه، وعبرت عشيرة العقيل دجلة من الكرخ وجعلوا متاريسهم على رأس الجسر قرب المولى خانه. وقد دامت المعارك بين الفريقين خمسة اشهر نهبت فيها الأسواق والبيوت وسفكت الدماء وانتهكت الحرمات، وأصبح القتال مشهدا من مشاهد الأسواق في كل يوم، ولم تهدأ الحالة الا في شهر أيار عام ١٧٧٨م عندما وصل حسن باشا الكركوكلي وهو يحمل فرمانا من السلطان بولاية بغداد، ودخل الوالي الجديد بغداد بموكب رسمي حافل فهرب عجم محمد إلى نواحي ديالي بمعونة صاحبه احمد اغا، ومن هناك صارا يقطعان الطرق ويغيران على بغداد. وقد تكرر المشهد نفسه في أعقاب وفاة سليمان باشا الكبير عام ١٨٠٢م إذ لم يكد سليمان باشا يلفظ أنفاسه الأخيرة أو ربما قبل ساعة من ذلك حتى بادر احمد أغا رئيس الأنكشارية بجمع من استطاع جمعهم من الرعاع والسوقة واستولىعلى القلعة فتحصن بها،واخذ يضرب السراي بالقنابل، وعندما سمع الناس هدير القنابل أسرعوا فأغلقوا دكاكينهم، وامتلأت شوارع بغداد بالمسلحين من الأهالي وبقيت الحالة مضطربة فترة من الزمن.

ابرز المدن العراقي في العهد العثماني.

امتازت المدن العراقية في العصر العثماني بعدة ميزات واضحة اقتضتها طبيعة الظروف العسكرية والاجتماعية والاقتصادية للعهد المذكور، كما اقتضتها أيضا النظرة العثمانية لتخطيط المدن المتركزة أساسا على الجانب العسكري الدفاعي فيها، ولقد انعكست هذه المؤثرات على تخطيط المدينة العراقية فشملت بذلك أهم مرافقها الرئيسية ، كالقلاع والأسوار وسراي الحكم (مقر الحكم) والأسواق والدور والميادين العامة علما أن المدن العراقية كانت شوارعها ضيقة كذلك أسواقها

، وكانت الأسواق عادة قريبة من منطقة السراي ، وتتفرع من السوق عادة مجموعة من الأسواق المتخصصة بنمط معين من التجارة والتي تؤلف بمجموعها حيا تجاريا كبيرا، فكل مدينة لها أسواق عديدة يختص كل منها بتجارة معينة من البضائع، والتي غالبا ما يسمى السوق باسم البضاعة التي تتاجر فيه مثل سوق العطارين، سوق البزازين...الاخ. لم تكن أوضاع المدن العراق جيدة للأسباب الأنفة الذكر، ومن خلال ما وصلنا من معلومات عن المدن العراقية يتضح ذلك بشكل جلي ، ومنها مدينة بغداد.

لقد تحولت بغداد بعد الغزو المغولي عام ١٢٥٨م من عاصمة دولة عظيمة إلى مدينة إقليمية، ثم تولت عليها الغزوات والمعارك سواء أكان ذلك في العهد الجلائري والتركماني أم الحكمين الصفوي والعثماني ، حيث كانت تتناول بغداد خلالها الأيدي المتنازعة وتتحكم فيها القوى الطامعة، فضلا عما أصابها في هذه العصور من كوارث وأوبئة وحرائق وفيضانات، غير أن بغداد رغم ذلك حافظت على سيادتها وبقائها كعاصمة فعلية للعراق .

لقد كانت مدينة بغداد مربعة الشكل ، مشيدة على صخور بيضاء وأخرى حمراء، وان أقدم وصف لها في العهد العثماني يعود إلى الرحالة الهولندي ليونهارت راوولف الذي زار المدينة عام ١٥٧٣ ، إذ يذكر أنها تقسم إلى قسمين ، وكانت شوارعها ضيقة ، وأكثر منازلها واهنة البناء ، والكثير من جوامعها مخربة حتى تحول لونها إلى السواد . ولم يلفت انتباهه سوى مقر الباشا والي بغداد وسوفها ، أما حماماتها فهي رديئة وسوداء ومعتمة حتى في النهار وجانب المدينة الأيمن مكشوف والدخول والخروج منها سهل جداً ، حتى إنها أشبه بقرية كبيرة أكثر منها مدينة ، أما الجانب الكائن على الجانب الأيسر من دجلة فقد كان محصنا بالأسوار والأبراج العالية والخنادق المحيطة بالسور. ويصف الرحالة فيدريجي مدينة بغداد في القرن السادس عشر بإنها مدينة ليست عظيمة، غير إنها مكتظة بالسكان، وكثيرا ما يأوي انه، الغرباء من إيران، أو الدولة العثمانية، أو شبه الجزيرة العربية. ومنها تنطلق القوافل إلى مختلف البلدان ، إذ تتوفر بغداد المؤن، التي تنقلها الارماث أو القوارب عبر نهر دجلة.

ويصف الرحالتين جون نيوبري بغداد عام ١٥٨٣، ورالف فيتش (١٥٦٣ـــ ١٥٨٩) بشكل لا يختلف عن وصف فيدريجي.

اما جون ايلدرد مدينة بغداد فيصف في العام نفسه الذي وصفها فيه نيوبري، ويقول إنها مدينة يجري نهر دجلة بالقرب من سورها ، ويبلغ سورها أكثر من ميلين ، وسكانها عموما يتكلمون ثلاث لغات هي العربية ، والفارسية والتركية. وكانت مركز تجاري عظيم لأنه طريق مرور من الهند الشرقية الى حلب والمدينة، مزودة بشكل جيد بالمؤن التي تأتي عبر بهر دجلة من الموصل. كانت مبانيها مبنية من الاجر المجفف بالشمس، وهناك القليل جدا من الأحجار، وبيوتهم كلها ذات سطوح مستوية وواطئة.

اما الرحالة البرتغالي تخيرا الذي زار بغداد عام ١٦٠٤ فقد رأى أنها اصغر حجما من البصرة، واقل تأثيرا، وهي خالية من الأبنية الحجرية الفخمة، ولكن تخيرا

لاحظ كثرة المقاهي الممتدة على شاطئ دجلة، والتي يلتقي الناس فيها لشرب القهوة والتحدث، ووصف المدينة بأنها تتمتع بجو هادئ ونسيم علل. وكان الوالي العثماني يقيم في القلعة وهي كبيرة ومستطيلة الشكل، ومحاطة بخندق يبلغ عمقه ٨ اذرع وعرضه ١٢ ذراع، وجدران هذه القلعة من الأجر وفي الجدار بعض الفتحات التي تطل منها قطع المدفعية. ويقول الرحالة بترو دلا فاله الذي شاهد بغداد عام ١٦١٦ أنها تقع على جانبي دجلة . وان شطرها الأكبر عل الجانب الشرقي ، وهو مسور وفيها جوامع كثيرة ، وأسواق حسنة البناء مغطاة ، كذلك فيها بساتين واسعة ، يكثر فيها النخيل والليمون والرمان ، ويتصل جانبا المدينة بجسر من القوارب عددها ٣٠ قاربا أما الباشا فيسكن في القلعة قرب سور المدينة على الجانب الشرقي منها ونلاحظ أن المدينة قد شهدت تحسنا نسبيا قياسيا لما قرأنا عنها في الربع الأخير من القرن السادس عشر ، ولكن هذا التحسن سرعان ما انتهى نتيجة عودة الصراع العثماني الصفوي على العراق ففي عام ١٦٢٣ عاد الصفويون واحتلوا العراق ، ويتحدث الرحالة ريتشارد كوك عن ذلك ويصف بغدد انها هوت مجددا إلى الحضيض ، فقد أصاب الحصار كثيرا من البنايات الكبرى فيها، كما شهدت انهيار المدارس والحياة الثقافية انهيارا تاما. وبعد خمسة أعوام فقط من زيارة كوك كتب الرحالة توماس هربرت عن بغداد الذي يقول عنها إنها مدينة ليست كبيرة ولا جميلة، وهي محاطة بسور قد يصل طوله إلى ثلاثة أميال وأكثر، ولا يوجد في المدينة كلها ما يستحق الذكر فهي لا تضم سوى الجسر والجامع وقصر السلطان والمقهى والبساتين.

ولم تكن بغداد بأحسن حال حينما زارها تافرنييه عام ١٦٥٢، إذ أشار إلى أن أبواب المدينة تفتح عند السادسة صباحا ، وان مساحة المدينة تبلغ ١٥٠٠ خطوة طولا، و٨٠٠ خطوة عرضا، ومحيطها ثلاثة أميال وللمدينة عدة أبواب هي:

١. باب الإمام الأعظم : ويقع في الجبهة الشمالية وهو باب محكم الصنع يمتد على خندقه جسر قوي .

٢. باب الظلام : ويقع في الجنوب الغربي من بغداد ، وهو باب حصين محكم التركيب من طبقات حديدية.

٣. الباب الأبيض : ويقع في الجبهة الشرقية في بغداد وينفتح إلى جهة ديالى.

٤. باب الطلسم : باب صغير يقع ما بين باب الظلام والباب الأبيض ، ويعرف باسم الباب الوسطاني لتوسطه البابين المذكورين.

٥. باب الجسر : يقع في الجهة الغربية من بغداد على شاطئ نهر دجلة .

المحاضرة السابعة

وللمدينة خمسة جوامع ، اثنان بطريقة بديعة، وفيها عشرة خانات بناءها رديء عدا اثنين يستعمله المسافرون للراحة ، وبشكل عام كانت المدينة سيئة البناء، لا جمال فيها عدا أسواقها . ويصف الرحالة التركي أوليا جلبي الذي زار بغداد عام ١٦٥٥ القلاع والأسوار التي تحيط بالمدينة بإنها تدخل الرعب والرهبة بنفس كل من ينظر إليها من جوانبها الأربعة . ومع ذلك لبثت بغداد طيلة القرن السابع الميلادي يسودها الركود والخمول والانزواء فالرحالة الإيطالي الاب فتششسو يقول ان المدينة كانت واسعة ومكتظة بالسكان ، ولكن بيوتها ليست ذات شأن، فهي مشيدة بالجص والطابوق غير المفخور، وقد احترق قبل سنوات من مجيء هذا الرحالة فسم كبير من المدينة، وليس هناك من يفكر بإعادة ترميمها .

والمدينة ليست وحدة متكاملة لان النهر يقسمها إلى قسمين، وقد تم إقامة جسرا من القوارب على النهر ليربط بين القسمين. وان أحسن البنايات وأقواها تحصينا هي تلك الواقعة شمالي المدينة المطلة على نهر دجلة، وبعض تلك الأبنية جديرة بالاعتبار ، أولها السراي وهو مركز رجال الحكم ، أما القلعة فتنتصب في الجهة الغربية ، وفيها عدد من الجنود لحمايتها ، ويتظر الأهالي إليها نظرة خوف وتعظيم ، وفيها مدفعية جميلة . وأشار فمشنسو أن الماء يباع في بعداد، ويجلبونه من الشط في قوراب كبيرة الجلد، وعلى ظهور الثيران والجياد، رغم تلوث المياه بالقار. وأكثر ما اثار إعجاب هذا الرحالة هو الأراضي الواقعة على ضفاف دجلة والفرات التي كانت خصبة وكثيرة العطاء. والخيرات في بغداد وفيرة جدا، فالقمح كثير، وكذلك اللحوم ومختلف أنواع الفاكهة. وكانت الطرق مليئة بمختلف أنواع الحبوب وهي تباع بأسعار بخسة. وكانت الاسواق التجارية جميلة وواسعة، ومغطاة بسقوف. ومر بها الرحالة ثفينو عام ١٦٦٥م ، إذ ذكر إنها أصبحت قليلة السكان بالنسبة إلى سعتها، تتخللها مساحات واسعة عديدة تخلو من السكان، وفيها عدا السوق فان ما تبقى من المدينة لا يعدو أن بكون شبيها بالصحراء .

خلال القرن الثامن عشر كانت بغداد ما تزال في أوضاع سيئة، فالرحالة فالدنماركي كارتستن نيبور يذكر أن القسم الأعظم من داخل المدينة مهدم وغير مسكون، أما القسم المأهول بالسكان فهو الذي يقع على نهر دجلة والقريب من السري وفيها شوارع كثيرة نغلق كل مساء ، ومعظم البيوت مبنية بالطابوق ، وهي عالية نوعا ما ، وليس فيها نوافذ تطل على الشوارع ، وفي وسطها مساحة صغيرة مربعة الشكل تطل على جميع غرف المنزل وفي كل بيت يوجد سرداب يقضي فيه البغداديون طيلة النهار في الصيف لاتقاء الحر. ويشير نبيور كذلك إلى كثرة التكايا الصوفية في بغداد ومنها القادرية والرفاعية، فضلا عن وجود أكثر من عشرين ممجدا تعلوها السائر، وفيها ٢٢ خانا، سبعة منها يكنها تجار كبار، وهماك عده حماماث، ومستشفى ذو غرف قذرة مظلمة يحجر فيها جميع المجذومين والمصابين بالإمراض المعدية. وفي عام ١٧٧٥ وصف بغداد البريطاني بارسونز، الذي يشير الى انتشار المقاهي بصورة كبيرة، وعندما سال عن عددها عرف بان عددها ٩٥٥ مقهى، وجميعها مسجلة في سجلات الحكومة تؤدي ضريبة سنوية ، وعلم بأن هناك

٤٩٠ لفتح مقاه أخرى. وشوارع بغداد ضيقة مبلطة، أما أسواقها فكثيرة والضخمة منها مسقفة، وهي جيدة التموين ومزدحمة. وفي عام ١٧٩١ زار الفرنسي الرحالة اوليفييه بغداد، وقال إنها مدينة ليست كبيرة، ولا أهلة بالسكان، والبيوت فيها ليست عالية ولا مبنية بشكل متين، وهي بسيطة المظهر من الخارج، وفيها قليل من الشبابيك، وليس فيها سوى طابقين، ومرتبة كلها تقريبا على شكل مربع، ومن الداخل هناك ساحة صغيرة مزروعة فيها نبقة ونخلتان أو ثلاث.

أما بيوت الأغنياء فان لها فناء ثان يستعمل كحديقة، ومجموعة سكنية مخصصة للنساء يقيم فيها الحريم. ويصف أقسام المدينة بأنها قذرة وموحلة في الشتاء وتعج بالتراب صيفا، والازقة ضيقة واقل ازدحاما من الأسواق. وشكا الرحالة البريطاني جاكسون الذي زار بغداد عام ١٧٩٧ من شوارع بغداد المتربة والضيقة جدا ، والتي تركت دونما اهتمام. ويبدو أن بغداد في القرن التاسع عشر لم تختلف كثيرا عن القروون السابقة إلا إنها شهدت توسعا نوعا ما، فالرحالة الهندي مرزا ابي طالب خان زار بغداد عام ١٨٠٣ وقال بأنها مقسمة إلى قسمان بغداد الحديثة، وبغداد القديمة، والمدينة الأولى من الجهة الشرقية وفيها يقيم الباشا وكبار الموظفين، والثانية من الجهة الغربية من النهر وفيها منازل جميلة جدا، ويبلغ محيط المدينتين ٨ أميال ، إلا أن مرافق بغداد لا تتناسب مع شهرتها فعقودها قذرة وموحلة والإقامة فيها مكروهة في الشتاء وأسواقها مظلمة ، إلا إنه ميز دور أعيان المدينة المبنية بالأجر، وأشار أيضا إلى كثرة المقاهي وهي مظلمة وقذرة ، ووصف الرحالة روسو سراي باشا بغداد عام ١٨٠٩ بأنه فسيح بحري في داخله على منازل جميلة ، والبذخ الطاهر في تأثيثها لا يكذب ما يعتقده الأوربيون عن الابهة الشرقية . أما الرحالة البريطاني بكنغهام الذي زار بغداد عام ١٨١٦ ، فقد قدم لنا صورة جيدة عن بغداد ، فالشوارع ضيقه وغير مبلطة ، ويتألف جوانبها عادة من جدارين خاليين من المشاغل ، يندرج فيها وجود النوافذ ، في حين تكون أبواب البيوت صغيرة وضيقة والشوارع ملتوية وأكثرها تعرجا ، وكانت بناية السراي عصرية نوعا م ، ويعتقد أن المساجد في بغداد أكثر من ثلاثين خانا وأشهرها حان الاورطمة الذي يمتاز بأروقته الكبيرة والصغيرة ويوجد فيها حوالي خمسين حماما ، وكانت أحسنها تلك المشيدة بالأجر وكانت أرضيته بسيطة وكانت القنصلية البريطانية تعد من أوسع المنازل في المدينة وأفضلها وأكثرها تأمينا للراحة، وبعكس القنصلية الفرنسية التي كانت تقع في دار ضيقة وغير جيدة وفي عام ١٨٣١ زار الرحالة ولستد بغداد في عهد حكم داوود باشا، واشار إلى وجود مدارس ملحقة بالجوامع وتحدث بوصف مسهب حول تصميم البيوت البغدادية ، واشار الى الديوان الذي يكون مفتوحا أمام الزوار دائما، وكانت جداران المنزل البغدادي من الداخل ملي، بالمرايا المزينة ، وتغطي السقوف هي الأخرى بنقوش الخشب المحفور الذي يعرض المزيد من حسن الذوق. ويضم السراي عدة قصور فخمة. وأشار الرحالة البريطاني فريزر الذي زار بغداد عام ١٨٣٤ الى وجود الشناشيل في البت البغدادية، كما تحدث عن الميادين العامة التي تكثر فيها المقاهي، التي يجلس فيها الكثير من الناس وهم يدخنون ويشربون القهوة ويلعبون الشطرنج. في عام ١٨٥٣ زار الر حالة البريطاني جيمس فيلكس جونز

بغداد وقام بإجراء إحصاء لعدد المحلات التي تتكون منها المدينة، وما تحويه هذه المحلات من جوامع وأسواق وخانات ومقاه وحمامات، وبلغ عدد محلات الجانب الشرقي من بغداد ٤٠ محلة، أما الجانب الغربي فأشتمل على خمس محلات فقط. ومن ذلك نلاحظ إن التمركز الكثيف للسكان كان في الجانب الشرقي لذي يعد مركز المدينة ومقر الولاية وتفضيل الناس للسكن فيه على الجانب الغربي لذلك السبب. وأشار الرحالة الألماني بترمان الذي زار بغداد عام ١٦٥٤ إلى وجود سوق خاص وكبير للكتب في أسواق بغداد، وهي إشارة إلى توجه جديد لأهالي بغداد في تجارة الكتب والعمل بهاء مما يشير إلى انتشار الحركة العلمية والأدبية، وذكر أن لبغداد ١٨ محلة في القسم الأيسر من نهر دجلة ، ولكتها غير متساوية السعة، اذ يوجد في احدها الفا دار، وفي الأخرى خمسون دارا فقط وأشار إلى وجود(٩٠٠٠٠) دار في بغداد، لكن القسم الأكبر منها خربة من الداخل، وأشار وجود زقاق خاص بالإنكليز في المدينة توجد فيه المقيمة البريطانية ويسكنه الانكليز المجودون في بغداد. وزار بغداد في عام ١٨٦٦ الرحالة الهولثدي انيهولت الذي أسهب في وصف المدينة الذي أشار إلى أن الجانب الأيسر تقوم عليه الإحياء المأهولة، إما الجانب الأيمن فيمكن اعتباره ضاحية يسكنها أبناء العشائر.

وتتألف البيوت من طابقين، والدور التي على شاطئ النهر تطل بغرف عالية ذات نوافذ جميلة واسعة مزينة بالزجاج الملون ، وعد هذا الرحالة أن أفضل الأبنية في بغداد هو جامع الإمام الأعظم كما تحدث عن شارع الانكليز الذي يحوي دور الجالية البريطانية وينتهي بدار القنصلية البريطانية العامة. ويتحدث الرحالة فوك عام ١٨٧٤ أنه عندما أراد زيارة والي بغداد رديف باشا رفض ركوب حصان لان الماشي . في شوارع مدينة بغداد براحة أكثر.

ويستمر الرحالة فوك في قوله عن مراكز الإدارة في مدينة بغداد اذ يذكر ان سراي الباشا لم يكن فخما، وكان موقعه على شاطئ نهر دجلة، وتلاصقه الثكنات (القشلة) ودار الصناعة.

المحاضرة الثامنة

ويقيم الباشا في السراي طول نهاره لتمشية الإعمال. وكان الداخل إلى السراي يجتاز الباب الخارجي مارا بالحرس، والساحة الخارجية، وفيها عدد من الخيل وعليها سروجها وأعنتها بيد السياس ، ثم يمر الداخل بحرس آخرين، ثم يدخل إلى ساحة واسعة ممتلئة بمجموعات من الجنود، ومحاطة ببناء مستطيل ذي طابقين، وله طارمات تواجه الساحة، ويشغل هذا البناء الضباط والكتاب. بعد ذلك يتم الدخول إلى حجرة أمام غرفة الوالي يقوم من يريد الدخول على الباشا بالانتظار فيها، وغرفة الباشا محروسة بجنود يحملون البنادق وقد ثبتت عليها الحراب. وكانت غرفة الباشا من الداخل واسعة ، ومؤثثة أثاثا نفيسا وهي مطلة على النهر ، وقد رصت على جوانبها دواوين عريضة مغطاة بأغطية من الحرير، والستائر على الأبواب والنوافذ من القماش الغالي النفيس ، وكان الوالي يجلس في أقصى الغرفة قرب منضدة عريضة، عليها أدوات الكتابة وأكوام من الأوراق .

أما مسكن الوالي الخاص فهو قصر أنيق يبعد ميلين شمالا على النهر وهو محاط بحديقة منسقة تنسيقا أنيقا على الطراز الأوروبي. وكانت الغرف مفروشة بترف عظيم ومزين بثريات فخمة من الكريستال والأثاث الفرنسي والتحف، والسجاد الإيراني الناعم، الستائر الحريرية، وفي الحديقة توجد خيمة مصنوعة من الحرير تتعاقب فيها الخطوط زرقاء وقرمزية واحدا بعد الأخر وقد ارتفع في قمتها علم الباشا، وفي القصر اصطبل فيه عشرات الخيول العربية الاصيلة. وزارت بغداد عام ١٨٨١م مدام ديو لا فوا وهي أديبة ومؤرخه فرنسية واشارت الى ان في بغداد مدرسة كبيرة أنشأتها هيئة فرنسية، وقدمت لنا معلومات عن التراموای، الذي أنشأه مدحت باشا والي بغداد السابق، وتحدثت عن خان الاورطمة وبأنه مركزا تجاريا مهما.

لم تكن المدن العراقية بأفضل حال من بغداد ، اذان الموصل في أوائل العصر العثماني كانت خرائب خالية من السكان. وقد وصف الاب فتشنسو الذي زار المدينة عام ١٦٥٦ م بأن المدينة في القرن الرابع عشر كانت اقل بكثير مما كانت عليه، فبيوتها بسيطة مشيدة بالطين ، وهي أشبه ما تكون بيوت رعاة من أن تكون مساكن أناس متحضرين وليس فيها ما يلفت النظر سوا قلعتها حيث يوجد عدد كبير من العسكر الانكشاري . ويحيط ألقلعه سور فيه مراكز للدفاع ضد الهجمات، وليس هناك ما يثير الإعجاب ، أما مواد البناء فهي الجص ، الحجر الرخو وهذا النوع من البناء لا يقاوم عوادي الزمن، فالأمطار الغزيرة ، تهدده كل حين، ولهذا السبب كان أقسام من القلعة مائلة إلى السقوط ، وبعضها متهدمة ، وليس كناك من يفكر في ترميمها وقد لاحظ هذا الرحالة كثرة المدافع على السور، ومن عادة الأتراك أنهم يكثرون من عدد المدافع فوق الأسوار ، ولكن هذه المدافع كانت مطمورة إلى نصفها في الأرض ، ولم تكن مجهزة بعربات ، بل كانت مهملة كليا، وكانت عند الأبراج عددا من المدافع وفد أسندت فرق حجارة، وكانت فوهاتها مسلطة على السهول المبسطة أمام المدينة . وتقع القلعة في طرف المدينة الأيسر، ويحيط بها خندق نجري فيه مياه النهر، والقلعة مهملة، حيث يسكن فيها الوالي. ومدينة الموصل صغيرة، ضيقة

المسالك، فقيرة المنازل ، لكنها من جهة أخرى تتمتع بخيرات وافرة نظرا لخصوبة أرضها. ويسكن العرب على ضفاف النهر ، وتكثر لديهم اللحوم والقمح ومختلف أنواع الحبوب، فضلا عن الفاكهة والدجاج، وكانت الأسعار في أسواق المدينة بخسة إلى درجة أثارت دهشة هذا الرحالة. وفي المدينة أنواع عديدة من الخيول الإيرانية ، والتركية ، والخيول العربية الأصيلة . ويصف فنشنسر الخان الذي استقر فيه بان بناءه من الجص، وغرفه صغيرة وسيئة لا يدخل لها الضوء إلا في منفذ وحيد هو الباب، وكان الباب بدوره ضيقا مخفيا في رواق قذر.

ويصف كل من الرحالة فيدريجي وجون نيوبري ورالف فيتش مدينة البصرة في القرن السادس عشر بأنها مركز تجادي عظم، لاسيما بالتوابل والعقاقير التي يجب إليها من هرمز، وتتوافر فيها الذرة والرز والتمور، التي تنقل إليها من المناطق المحيطة يها. أما جون ايلدرد فيشير إلى أن مدينة البصرة يبلغ محيطها ميلا ونصف الميل، وكانت البيوت والقلاع والأسوار مبنية من الأجر المجفف بالشمس. ويبدو أن مدينة البصرة في القرن السابع عشر لم تختلف كثيرا فى أوضاعها عن القرن السابق، فالرحالة البرتغالي بيدرو تخيرا الذي زار العراق في أوائل هذا القرن أشار إلى مدينة البصرة إنها تقع على ارض منبسطة، وربما كان فيها عشرة ألاف بيت دخل الحصن وخارجه، معظمها فسيحة واسعة، لكن بناءها ردىء، فهي مبنية بالأجر المجفف بالشمس الذي لا يصمد أكثر من ثلاث سنوات إلا ماندر. وبيوت الفقراء في العموم من الحصران وحزم القصب الذي يكثر في الأنهار. وكانت الأسوار والمتاريس هي الأخرى مبنية من الطين، وكلها مهدمة تقريبا. ويحيط بالمدينة خندق عميق وعريض يغذيه رافد ، وخلف الأسوار مراكز الحركة التجارية ، ومعظم الحرف اليدوية أيضاً ، فضلاً عن المقرات الرئيسية ومراكز القيادة ومعظم الحامية ، وهناك الباشا وهو القائد الاعلي في حالتي السلم والحرب ، ودار مكوس تدر عوائد كبيرة تدفع منها نفقات الحامية وغيرها من التكاليف. و لا توجد في مدينة البصرة مباني جديرة بالذكر باستثناء بعض الحمامات العامة وهي نظيفة جدا ومريحة .

اما الإيطالي فنشنسو فقد وصف مدينة البصرة عام ١٦٥٦، التي يقول عنها إنها أقدم المدن في المنطقة العربية، وقد طبقت شهرتها الأفاق ، وكانت قبلة الكثيرين من مختلف القوميات لأنها محطة مهمة على الخليج العربي ، إما عمارتها فأنها مثل بقية المدن العراقية فليست على جانب كبير من العظمة، وليس فيها ما يجذب النظر، وتتناثر دورها بين بساتين النخيل ويتحدث جون تايلر عن البصرة أثناء رحلته الى العراق عام ١٧٨٩ـــ١٧٩٠ ويقول ان البصرة كانت مستودعا للتجارة، ولها أسوار تحيط بها ، وفي هذه الأسوار أبراج مدورة ، ولكن لا قيمة دفاعية لها، وكانت تابعة اداريا لبغداد، وليس فيها من الجنود والعتاد ما هو جدير بالذكر، ما عدا مجموعة من الفرسان تعمل على حماية المتسلم. ويشير تايلر انه لا وجود لفن البناء في مدينة البصرة، فبيوتها منخفضة وهي مشيدة بالمدر الأبيض الذي لم يفخر بالنار، ولكنه مصنوع من طين فاخر ونظيف للغاية، بعد أن يخلط جيدا بالتبن وروث الخيل. وتخلط هذه المواد معا ، وتعجن جيدا، ثم تقسم الى قطع حسب الأحجام المطلوبة وتعرض من ثم للشمس لتجف وتتماسك. وان سكان المدينة مضطرون الى إتباع هذه

الطريقة لافتقارهم الى الأخشاب في تلك الأنحاء. والخشب الوحيد المتوفر لديهم هو خشب النخيل لكنه رخو ضعيف فلا فائدة ترجى منه .
وزار الرحالة الهولندي راوولف قلعة اربيل عام ١٥٧٣م يصفها بأنها كانت مدينة كبيرة فيها ابنيه متواضعة وأسوار هزيلة. ويبدو أن السبب في ذلك يعود إلى أمرين مهمين هما الاضطرار السياسي الذي شهدته المدينة منذ الغزو المغولي للعراق ، ثم الصراع الصفوي - العثماني فيما بعد ، حيث كانت اربيل منطقة تجاذب بين الدولتين للسيطرة عليها ، الأمر الذي أدى إلى تدهور قلعة المدينة وفقدانها مكانتها وخصائصها العمرانية. ويبدو إن تلك القلعة لم تشهد تطورا كبيرا خلال القرون اللاحقة ، ويتضح ذلك من شهادتين جاءتنا من القرن الثامن عشر ، فالرحالة الدنيمركي كارستن نيبور الذى زار العراق عام ١٧٦٦ يصف اربيل بانها لم يبق منها شيء عدا القلعة، ولكنها لم تكن مسورة واقيمت عليها البيوت ولاسيما حول حافة التل بصورة متماسكة، فلا يستطع احد ان ينفذ خلالها إلا من خلال باب المدينة. ويقول الرحالة اوليفيه ان قلعة اربيل مبنية على تل مسطح ويحيط بها سور قديم . وكانت أسواق مدينة اربيل واسعة وجميلة ومكتظة بالتجار ، وان معظمها مغطاة بالسقوف ومزينة بطريقة جميلة. ومخازنها مبنية من الطابوق وهي ملآى بالبضائع.
لم يكن في قلعة أربيل من الآثار الشاخصة غير بقايا جامع كبير يقع خارجها وسط الحقول، منارة الجامع مبنية من الجص والاجر، وتتميز بعمارتها الإسلامية حيث ان لها مدخلين متقابلين يمكن من خلالهما الصعود إلى قمتها. وربما كان حجم مدينة أربيل في القرن الثامن عشر هو الأكبر بعد الموصل ، وهى تضاهي بمساحتها مدينة بغداد. وكان الجزء الأعظم من المدينة ينتشر حول القلعة. وكان ارتفاع القلعة نحو ١٥٠ قدم، وقطرها ٤٠٠ ياردة . وجدرانها الخارجية تحتوي على نوافذ مبنية بطريقة غير منظمة، وما عداها هناك شرفات المنازل التي شيدها أغنياء المدينة. وللقلعة بابان كبيران، احدهما واسع يقع على الجهة الشمالية ويمر من تحت السرايا والأخر صغير يقع في الجهة الشرقية وشوارع المدينة وعرة حتى ان العربات لا يمكن ان تسير فيها. وعد العثمانيون اربيل وقلعتها من المراكز العسكرية المهمة في المنطقة، لذا كان فيها حامية عسكرية عثمانية.

المحاضرة التاسعة

ومن المدن الأخرى التي وصلتنا عنها معلومات وان كانت قليلة مدينة تكريت التي يقول الايطالى فنشنسو أنها كانت في الماضي مدينة كبيرة واسعة الأطراف، لكنها كانت فى منتصف القرن السابع عشر قرية عادية ، وفيها قلعة كبيرة واقعة على تل مسيطر على النهر، لها أربع أبراج كما وردتنا معلومات جيدة عن مدينة الكوفة لقد ذكرها الرحالة الفرنسي اوليفييه ، وأشار الرحالة الإنكليزي بورتر عام ١٨١٦ إلى الحالة المزرية للمدينة، فقد كانت صغيرة المساحة وشوارعها وأسواقها ضيقة، أما بيوتها فقديمة وغير منتظمة البناء. كما أشار إليها الرحالة الإيطالي سبيستياني وعدها مدينة غير جميلة ومهملة، وان أشاد الرحالة الدنمركي كارستين نيبور بمزارعها . كما تحدث المنشي البغدادي عن الكوفة وأشار إلي أنها بلدة كبيرة ليس فيها من البنايات سوى مسجدها . وكانت بشكل عام خلال القرن التاسع عشر بلدة كبيرة وأسواقها غير منتظمة وبيوتها حسنة تحيط بها حدائق وان ظلت بصورة عامة مهملة وخربة . ووصف بيدرو تخيرا مدينة كربلاء في أوائل القرن السابع عشر بأنها مدينة مفتوحة تضم أكثر من ٤٠٠٠ منزل، كثير منها جيدة العمارة ولكن بناء ها بائس، وسكانها من المواطنين العرب ومن الأتراك الذين تم إرسالهم للسيطرة على المنطقة. وفي المدينة جامع تعلوه مأذنة مكرس للحسين(ع). وفي طرف المدينة هناك مستودعان كبيران مربعان ، يستخدمان اماكن للراحة والضيافة. ومن المدن التي وصلتنا معلومات عنها مدينة الفلوجة التي وصفها جون ايلدرد عام ١٥٨٣ ، ورالف فيتش (١٥٨٣-١٥٨٩) ، وكانت قرية صغيرة تضم بضع مئات من البيوت وهي مركز مخصص لتفريغ البضائع التي تأتي عبر الفرات .

التطورات المعمارية في المدن:

شيد الولاة العثمانيون في العراق العديد من المساجد والمباني العامة ، فقد أنشأ الوالي اسكندر باشا في بغداد عام ١٥٦٦ ، كما بني الوالي مراد باشا جامعا اخر سماه باسمه وأكمل بناءه عام ١٥٧٠ ويقع هذا الجامع في محله الميدان . وفي عام ١٥٨٣ عمر الوالي علي الوزندازه ضريح الإمام الحسين (ع) وجامعه، كما اهتم الوالي جغاله زاده سنان باشا بتعمير الأضرحة والمساجد والمدارس، وقام ببناء مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني ، وتكية المولوية التي تعرف اليوم بجامع الاصفية وكان بناؤها عام ١٥٩٠ ، وبنى الي جانبها خانا ومقهى وسوقا ، كما عمر هذا الوالي جامع الصاغة وجامع الخفافين ومدرسته. ومن الجوامع العثمانية الاخرى جامع الوزير ويقع على الضفة اليسرى من دجلة بالقرب من جسر الشهداء الحالى وقد سمي نسبة الى الوزير حسن باشا والي بغداد(١٥٩٧ ـــ١٦٠١). ومن الجوامع المهمة في بغداد جامع الخلفاء، ومنها ايضا جامع السليماني ويسعى جامع السراي أو جامع جديد حسن باشا. كما شيد الوالي محمد باشا الخاصكي جامع في بغداد يعرف باسمه، كما شيد مسجد الإمام علي بن ابي طالب (ع) في النجف، وفي عهد الوالي عمر باشا ١٦٧٩ تم تعمير جامع وقبة ضريح الإمام الأعظم أبي حنيفة ، كما أمر بتعمير مرقد الإمام أبي يوسف وجعل له قبة ورواقا ، وبنى مدرسة بالقرب من جامع القمرية في جانب الكرخ، كما عمر خان أزاد على طريق بغداد – المحمودية . وفي عام ١٦٨٨

تم بناء خان بني سعد وهو على طريق بغداد بعقوبة. ومن الجوامع المهمة في المصر العثماني جامع" العادلية الكبير" وشيد سليمان باشا الكبير المدرسة السليمانية كما بنى قناطر دلي عباس وأمر ببناء قلعة كوت العمارة. وشيد مدحت من العمارات المدنية والعلمية منها المكتب الرشدي العسكري ، والمكتب الرشدي الملكي ، ومكتب الحميدية، وعدد من المدارس الابتدائية وأسس مدرسة الصنائع على نهر دجلة في محلة الميدان

٤.أوضاع المرآة في العراق خلال العهد العثماني:

عانت المرآة العراقية كثيرا من ضروب الاضطهاد والاستغلال والاستعباد والتخلف الذي عانى منه شعبنا في الفترة التي خضع فيها للتسلط العثماني ما بين (١٥٣٤ إلى ١٩١٤م) وعلى الرغم من ذلك، فقد استطاعت المرآة العراقية أن تسهم في بعض المجالات إلى جانب الرجل في ميدان العمل والبناء وان تتجاوز حالة التخلف والقيود المفروضة عليها.

ظلت المرآة العراقية طوال العهد العثماني أسيرة العادات والتقاليد البالية التي لا تعطي للمرآة قيمة بشرية إذ ينظر إليها في مستوى اقل من مستوى الرجل ، ويتوجب عليها أن تعيش داخل جدران بيتها وإذا ما خرجت منه عليها أن تلبس الحجاب الذي ترى من خلفه العالم، وعلى الرجال أن يتجنبوا ذكرها في المجالس العامة، لان مجرد الحديث عن النساء يعد خروجا على الأدب وولوجا في أسرار البيوت، ولهذا عوض بعض الشعراء والأدباء هذا النقص باختراعهم شخصيات نسائية من بنات أفكار ينسجون حولها القصص الأدبية والأشعار استجابة منهم لضرورات عصرهم ، أو الكتابة عن شهيرات النساء في التاريخ، دون التطرق إلى ذكر أي من نساء عصرهم.

المحاضرة العاشرة

لم تكن عزلة المرأة مقتصرة على الحجاب فقط ، بل انها تعيش في عزلة تامة عن الرجال ، حتى داخل بيتها ، إذ تقيم النساء في أماكن خاصة في البيت ولا يمكنها الالتقاء بالرجال وفي هذه الأماكن لا يفتح أي منفذ مطل على الطريق، وتجاه ذلك لم يبق للمرأة من سبيل للترويج عن نفسها سوى الزيارات الجماعية التي تقام بصورة دورية وعندما يأذن الزوج بذلك فقط ، وقد يخرجن أحيانا من الدار في غير هذه المناسبات وذلك للذهاب إلى الحمامات العامة ، التي كانت متوفرة بأعداد كبيرة في بغداد وفي المدن العراقية الأخرى، ولكن في هذه الحالة عليهن بالتستر من أعلى الرأس حتي أخمص القدم حتي يتعذر على ازواجهن انفسهم تميز هن إذا لاقوهن في الطريق.

كان من الطبيعي أن ينعكس هذا النمط من الحياة على مستوى الوعي الاجتماعي لدى المرأة بشكل عام، ذلك لان مجرد قضائها للوقت بالقيل والقال وتكرار الزيارات، وقد أثر على مستوى تفكيرها، بحيث لم يعد بإمكانها أن ترتفع إلى اعلى من نطاق تعلمها المحدود، أو أن تتخذ القرار المناسب في مسألتين مهمتين من مسائل حياتها الا وهما الزواج والتعليم. ففي مسألة الزواج حرمت المرأة حق اختيار زوجها في المدن وفي الارياف على حد سواء، وانما كان وليها يفرض عليها زوجا، غالبا ما يكون ابن عمها أو اقرب المقربين إليها ، أو شخصاً لم تره ولم تعرف عن اخلاقه شيئا، وقد تسبب هذا الأمر بكثرة الطلاق، وفي تربية الأطفال وتوجيههم، إذ تشير كثير من الحوادث إلى أن جهل المرأة . بأساليب التربية الصحيحة يؤدي في الغالب إلى وفاة عدد كبير من أولادها، سواء بسبب إسرافها الشديد في إطعامهم، أو سوء التغذية ورداءة البيئة وعدم الوقاية من الإمراض، وكان معظم اهتمام الام منصبا على محاولة إطالة أعمار أطفالها بمختلف الوسائل البدائية ، بحيث يمكن القول دون مبالغة بأنه لا يعيش منهم إلا شديد القوة الذين يستطيعون التكيف لظروف الحياة القاسية.

في مسألة التعليم لم يكن الام اقل وطأة مما هو عليه في حالة الزواج، فقد كانت فرص التعليم للمرأة أقل من فرص الرجل، لذلك فأن أكثر تلقينها كان منصبا على معرفة أمور الخياطة والتطريز وما شابه تلك الأشياء التي تعد ضرورية أكثر من سواها للإناث في مثل ظروفها ، أما فرص التعليم الحقيقة فقد أحيطت بتقاليد صارمة حرمت المرآة من تعلم القراءة والكتابة لأنها تؤدي - حسب نظرة المجتمع السائدة في ذلك الوقت - إلى إفسادها.

وهكذا أدى تزمت فتأت مهمة من المجتمع العراق في الحفاظ على بعض الأساليب والعادات البالية، إلى تأخر المرآة وحرمانها من حقها الطبيعي في التعلم أسوة بشريكها الرجل، وظلت المرآة العراقية على تلك الحالة حتى أواخر القرن التاسع عشر، عندما كتب الحظ أن ينشئ لها مدرسة في بغداد ، إلا أن إنشاء مثل هذه المدرسة لم يمر دون أن تصاحبه عقبات عديدة ، من قبل الطبقات المحافظة على القيم ، التي كانت تتهم كل من يقوم بإرسال طفلته إلى المدرسة بشتى التهم الباطلة،

ورغم ذلك كله فقد تم فتح هذه المدرسة، إلا أن مجلس معارف ولاية بغداد بحث عندئذ الشروط التي يجب توفرها في تلك المدرسة فقرر حصرها في الشروط التالية:
١. ان لا تكون إحدى الدور المجاورة لها متسلطة عليها.
٢. أن لا تكون شبابيكها مطلة على الشارع.
٣. أن لا يكون في الدور المجاورة أشجار عالية.

وكانت الدوافع لوضع هذه الشروط هو تجنب الانتقادات الموجهة إلى مؤيدي فكرة وجوب تهذيب الفتاة وتثقيف عقلها، إلا أن الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي الذي كان احد أعضاء المجلس المعارف قد ظل صامتا إثناء مناقشة الأعضاء - وكان معظمهم من المحافظين فلما سكتوا قال متهكما: "أن هذه الشروط يا حضارات الأعضاء لا تنطبق إلا على منارة سرق الغزل" . ولم يسلم الزهاوي نفسه من انتقادات المجتمع اللاذعة، إذ قام بنشر إحدى مقالاته في جريدة (المؤيد) المصرية ، وهى تدعو إلى تحرير المرآة في العراق ، وفك أسرها ومساواتها بالرجل، على طريقة المفكر المصري قاسم أمين، ازدادت حملة المعارضة الموجهة ضده بحيث اضطر الزهاوي على التراجع عن أفكاره. وبهذه النتيجة ظل وضع المرآة العراقية في العهد العثماني في غاية التأخر مما منعها من ممارسة دررها الحقيقي في المجتمع كأم ومربية ناجحة ومتعلمة. وعلاوة على ذلك فأن العادات والتقاليد البالية تناهض تحرم كل تدخل في شؤون المرأة ، إذ عندما أرادت الإدارة العثمانية علمية إحصاء النفوس في عام ١٨٩٣م جوبهت بمقاومة عنيفة، إذ أن الناس اعتبروا بان مثل هذا العمل انتهاك للحرمات وبدعة تمس شرفهم وتحط من قدرهم وكرامتهم فخرجوا في الشوارع وتوجهوا إلى حيث بقيم الوالي العثماني، مطالبين بإلغاء قرار الاحصاء المذكور ، ولم يتفرقوا إلا بعد أن قرر الوالي تأجيل النظر فيه. ولم تكن هذه المحادثة مقتصرة على بغداد ، بل حدث ما يماثلها في الموصل، إذ قاوم الموصليون عملية إحصاء الذكور والإناث في الولاية ، مما اضطر الوالي العثماني على التنازل عن العملية نهائيا.

بهذه الصورة فرض المجتمع كثيرا من القيود على المرأة في الوقت الذي اباح أمورا أخرى كانت نحط من كرامتها وقدرها ، فقد وضع على حرية تعليم المرأة ومنع عملية إحصاء الاناث بحجة أن ذلك يمثل امتهانا لكرامة الرجل، والحقيقة انه امتهان لكرامة الرجل ، والحقيقة أنه امتهان لكرامة المرأة أكثر من غيرها ، كما شجع استمرار بعض العادات والتقاليد الالية التي تقلل من قيمة المرأة وتظهرها بمظهر الضعف والعجز.

مع كل هذه الظروف الصعبة التي عاشتها المرأة العراقية، إلا إنها لم تقف مكتوفة الايدى ازاء ما كان يجري فى مجتمعها، فهي في بعض الاحيان تقوم بكثير من الاعمال التي يقوم بها الرجل في اوقت الحاضر إلا أن مساهمتها اختلفت باختلاف وضعها في المدينة والريف والبادية. فنساء الطبقات العليا المدن مثلا لم يكن مطالبات للقيام بنشاطات اقتصادية، كتلك التي تمارسها النساء في الطبقات الوسطى والفقيرة، ولهذا انصرافن إلى مزاولة شؤونهن النسوية الخاصة كثل الأقراط في اقتناء الملابس المختلفة والمجوهرات وتناول القهوة والتدخين والقيام بزيارات

جماعية لبعضهن البعض ، وقد يصحب تلك الزيارات استدعاء المغنيات لإدخال البهجة إلى نفوس الحاضرات ، أما نساء طبقة الدنيا ، والوسطى أحيانا ، فإنهن يمارسن بعض النشاطات، خاصة الغازل المنزلي ، بل كانت هناك في بعض مصانع النسيج نساء يعملن في هذه المهنة الشاقة ، وكن يعمدن إلى مشاركة الرجل في غزل الصوف بالمغازل ومن ثم غزله بالدواليب (الجومات) ، وكانت هذه الصفة الأخيرة هي من مميزات المجتمع الموصلي أيضا، الذي كان يعتمد في اقتصاده على صناعة الغزل. بحيث كان بمنبر أن عدم معرفة المرأة بالغزل، عيب لا يغتفر في تربيتها المنزلية. وتتحمل المرأة الريفية والبدوية قسطا كبيرا من أعمال البيت في الداخل والخارج، ففي الداخل تقوم المرأة بتهبيش القمح (فصل الحبوب عن قشرتها) وطحنه بمطاحن تدور بالأذرع، وتهيئة الخبز، واستخلاص الزبد من الحليب، والقيام بأعمال الطبخ وجلب المياه من الآبار و الأنهار أو الينابيع إلى غير ذلك. وفي الخارج تقوم المرأة بمساعدة الرجل في أعمال الحراثة والزراعة والحصاد وجني المحاصيل الأخرى، وفي رعي المواشي ورعاية الحيوانات، بل ان النساء قد يقمن في بعض الأحيان، بخاصة أولئك اللواتي يقمن بالقرب من مراكز المدن، بحمل بعض مشتقات الحليب والدجاج والبيض لعرضها للبيع هناك، والمرأة البدوية لا تقل أعباؤها ثقلا عن أعباء جارتها في الريف، إذ انها تضطلع بجميع الاهتمامات المادية ونقوم بأصعب الاعمال البيتية فهي تنصب الخيام وترفعها وتجلب المياه وتجمع الشوك الجاف للوقود وتحلب الماشية وتوقها إلى المراعى والمورد وتستخرج الزبدة وتطهي الطعام، ويتحدث الرحالة سوفبوف عن أعباء المرأة البدوية فهي تقوم بغزل الوبر والصوف وحياكة الانسجة الصوفية لصنع الملابس. وعلى الرغم من كل التقييدات التي احاطت بحياة المرأة العراقية فقد كان لها شان في المعارك والحروب بخاصة في اثارة حمية المحاربين وحماسهم، إذ عندما تندلع الحروب تشهد النساء المعارك فينشدن الاهاويج بحق الرجال الشجعان لتشجيعهم على متابعة الحرب ويقذفن بالشتائم وجوه المشوارين والجبناء من الرجال، كما يمددن يد العون إلى المصابين والجرحى ويقع على عاتقهن حراسة الأسرى والمغوليين . وليس ذلك فحسب أن المرأة العراقية قامت بدور السفيرات فى الحروب في بعض الأحيان ، إذ عندما قامت حالة حرب بين أحد شيوخ العشائر العراقي والدولة العثمانية في منتصف القرن التاسع عشر، بعث ذلك الشيخ بزوجته لتفاوض قائد الحملة العثمانية، فاستقبلها القائد استقبالا فيه كل مظاهر التقدير والاحترام وانزلها في ديوانه ، ويدل هذا الامر على مدى الثقة التي كانت تتمتع بها المرأة العراقية والأدوار المهمة التي كانت تناط بها في بعض الأحيان.

المحاضرة الحادية عشر

٥- الطوائف الدينية في العراق :

أن المعلومات المتوفرة عن الطوائف الدينة في العراق في العهد العثماني ليست بالكثيرة ، مما شكل صعوبة في تتبع أحوال هذه الطوائف استاء ذلك العهد شكل المسيحيون طائفة مهمة من سكان العراق ، ومع ذلك لا نعرف الكثير عنهم في المهد العثماني، ونعرف أن لهم عدة كنائس هي :

١. كنيسة الارمن الارثوذكس.
٢. كنيسة النساطرة الكلدان.
٣. كنيسة السريان الارثوذكس.
٤. كنيسة الريان الكاثوليك.
٥. كنيسة الارمن الكاثوليك.

كان على أفراد الطوائف الدينية ومنهم المسيحيين يؤدون الجزية إلى السلطات العثمانية، وكان حباة الجمرك والخراج مسئولين على جباية هذه الجزى. ويبدو ان ذلك بكن يخص مسيحي بغداد انما كافة المسيحيين في العراق، فالمسيحيين القاطنين في كردستان كانوا يؤدون الجزية للسلطات العثمانية، إذ كانت تفرض عليهم ضريبة سنوية ، ونعرف أنهم كانوا يعيشون في فرية عينكاوة القريبة من أربيل ، وكان أغلبهم من السريان اتباع الكميسة الكاثوليكية وفي قرية كرمليس التي كان سكانها من الكلدان الكاثوليك يتكلمون اللغة الكلدانية الأرامية . كما عاشوا فر زاخو ، وكان للكلدان فر زاخو كنيسة ، فضلا عن كونهم يعيشون في بغداد، البصرة، والموصل وغيرها من المدن. وكان اكبر تواجد للمسيحين في ولاية الموصل، وكانت القرى الواقعة شمال المدية يسكنها المسيحيين ، النساطرة واليعاقية ، وهم يعملون في الزراعة . وكانت مدينة تكريت على المستوى الديتي من الولايات الخاضعة لسلطة البطريرك اليعقوبي، الذي يقيم فيها عادة.

وقد حصل المسيحيين في مدينة البصرة في ظل حكم افراسياب على حرية واسعة، مع ذلك لم يمنع بعض الأحيان أن تتعرض بيوت المسيحيين للنهب من قبل الانكشارية. وفي بغداد تواجد هناك الأرمن والكلدان، والريان واليعاقبة، وكانت طائفة الارمن ، يشكلون الشطر الأكبر من المسيحيين الشرقيين، وكان اغلبهم قد نذحوا إلى العراق من إيران وذلك بسبب اضطراب الأوضاع فيها. ويظهر إن البعثات التبشيرية الكرملية الى بغداد قد تمكنت من إدخال عدد كبير من مسيحي العراق الى مذهبهم، حتى أنهم تمكنوا من أن يحملوا النساطرة و المسيحيين الأصليين لهذا البلد والمسيحيين المتدينين على ترك كنائسهم. إذ كانت من واجبات المبشرين في بغداد.هو دعوة المسيحيين الشرقيين لمتابعة البابا في الفاتيكان. وعادة كما كانت الحروب بين الدولة العثمانية والإيرانية تدمرا القرى المسيحية كما حدث عندما هاجم نادر شاه العراق فانه الحق ضررا كبيرا بقرية كرمليس المسيحية.فضلا عن ذلك قد تنشب في بعض الاحيان النزاعات بين الطوائف المسيحية على الأمور (العقائدية) وقد عمل المسيحيون في العراق في حرفة الصياغة وحرف يدوية أخرى، كما عملوا

بالتجارة وهم لا يختلف كثيرا عن أوضاع باقي الشعب العراقي فالغالبية العظمى منهم لا يعرفون القراءة والكتابة.

أما اليهود فقد عاشوا في المدن العراقية المختلفة وكانت بغداد من اكثر المدن تجمعا لليهود وقد تسنم اليهود عدة وظائف إدارية في المؤسسات الحكومية مثل دوائر الجمرك كما امتهنوا التجارة والحرف المختلفة، وكانت لهم في بغداد أحيائهم الخاصة بهم، وكانت عانة من المدن التي تشتمل على إعداد لا بأس منهم.

سكن اليذيدية في جبال سنجار وهم من اصل كردي ، ويقصمون إلى ثلاث شعائر وهي : ملورفان ، وروسان ، وخالتلي ويعمل القسم الأول منهم بالزراعة . أما الباقون فكلما يشير بعض الرحالة كانوا قطاعا للطرق ولم تكن علاقتهم بالسلطة العثمانية جيدة وشن العديد من ولاة بغداد حملات عسكرية ضد قراهم، وهم تابعين إداريا لولاية الموصل، وأغلب اليزيدية لا يقرأ ون أو يكتبون.

أما الصابئة فيقطنون على ضفاف دجلة والفرات في جنوب العراق إذ استوطنوا العمارة والبصرة، ويعملون عادة بالصاغة وحرف أخرى، وكان امهر الحرفيين منهم يعملون في سوق الشيوخ، كما امتهنوا أيضا حرفة لحم الأواني المنزلية المختلفة المصنوعة من النحاس والحديد .

التعليم في العراق

أ. المؤسسات التعليمية الشعبية:

تمثلت المؤسسات التعليمية الشعبية بالكتاتيب والمدارس الدينية والتكايا، وقد قامت هذه المؤسسات بدور مهم في حياة المجتمع العراقي، وخاصة قبل نشوء المؤسسات التعليمية الحديثة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فأما الكتاتيب فقد كانت منتشرة في أنحاء مختلفة من العراق انتشارا كبيرا، ومما ساعد على ذلك أن السلطات آنذاك لم تكن تعد الخدمات التعليمية من اختصاصاتها وإنما من اختصاص الأفراد والجماعات وكان التعليم في هذه المؤسسات مجانا، إلا أن الآباء عادة كانوا يسهمون فى تقديم بعض الأموال إلى المعلمين الملالي ، الذين يعلمون الأطفال القرآن الكريم والكتابة، والحساب.

كان الكتاب يدار من قبل معلم (الملا) ولا يشترط في هذا المعلم سوى أن يكون من حفظة القرآن الكريم وما يتطلب ذلك من معرفة القراءة والكتابة، ويتم التدريس في حجرة صغيرة فى مسجد أو فى دار الملا أو في دكانه ، حيث يجلس الأطفال على الحصر واضعين بين أيديهم القران الكريم أو أحد أجزاءه ، ويحمل كل طفل معه إلى الكتاب ريشة أو قلما، وحبرا ولوحا يستعمله في كتابة (الالف باء) أو العمليات الحسابية البسيطة، وكان هناك نوع من التعاون بين المعلم ووالد الطفل وكانت له صلاحية واسعة في تربية الولد، وقد يستعمل القسوة في معاملة الولد الذى يشذ فى سلوكه أو يقصر في دراسته، والتعليم في هذه المؤسسة حر لا يخضع لتعليم أو قوانين ، فالملا لا يلتزم بعدد سنوات في تربية الأولاد لأنهم يومئذ يتقدمون حسب قبلياتهم فكانوا يختمون القرآن في فرص متفاوتة ، كل حسب ذكائه واجتهاده وعملية

التعليم تتم بتحفيظ الأطفال القرآن وأصول الدين بتكرار مطرد وطريقة التعليم فردية إذ يعد كل طفل صفا قائما بنفسه . بالرغم من أن معظم المعلمين كانوا يعدون عملهم جزءا من واجباتهم الدينية إلا أنهم كانوا يتسلمون أجورهم من أولياء أمور الأطفال وتسمى الأجور (الخميسية) لأنها تعطي كل يوم خميس . ولم تكن الأجور محدودة بل يقدم ذوو التلميذ ما تجود بهم أنفسهم وقد يدفعون للمعلم أشياء عينية ، ويمكث الطفل في الكتاب من مطلع الشمس حتى غروبها باستثناء فترة الغذاء الذي كان يتناوله في بيته ، وللملا مساعد يسمى خلفه واجبه الإشراف على الأطفال الجدد وحملهم على إنجاز واجباتهم واخبار الملا بذلك ليعطيهم درسا جديدا ، وهكذا يستوعب الطفل القسم المطلوب منه ليتنقل إلى القسم الأخر . ذلك بالنسبة إلى البنين الذين ينصرفون بعد اكمالهم التعليم في الكتاب الي الحياة العملية لاكتساب حرفة من الحرف ، وقد يتجه قليل منهم إلى المدارس الدينين ليكمل تعليمه ، أما البنات فكن يرسلن إلى الملاية أو (الخواجة) وتعني المعلمة ، وتعلمهن القرآن الكريم وواجبات الدين الحنيف وقد يكون الكتاب الذي تدبره المعلمة مختلطا.

لم تقدم الحكومة أية مساعدات مالية إلى هذه الكتاتيب التي ظلت تعمل وفق أساليب تعليمية مختلفة ، ولكن التجار وشكاوى الأهالي المتكررة أدت إلى لزوم مراقبتها بقانون صدر في السنوات المتأخرة من عهود الاحتلال العثماني .

لا توجد إحصائية دقيقة عن عدد الكتاتيب في العراق خلال تلك المرحلة من تاريخ العراق الحديث ، إلا أن ثمة اجصائية تحمينية تشير إلى إنها كانت ١٩١٣-١٩١٤م لا تقل عن (٤٠٠) الكتاب .

المحاضرة الثانية عشر

كان للمسيحيين مؤسسات تعليمية دينية تسبه في الغرض الذي من أجله أنشئت كتاتيب المسلمين ومدارسهم ، وقد لعبت المدارس الدينية المنتشرة من الكنائس والأديرة دورا كبير في التعليم ومعظم معلمي هذه المدارس ومن القسس والرهبان الشمامسة وقد يلتقي تلاميذ هذه المدارس دروسهم باللغة العربية أو السريانية ، وسنتناول ذلك الوضع لاحقاً بشئ من التفصيل.

أما المدار س الدينية التي وجدت في العراق خلال هذه الفترة فلم تكن سوى امتداد للدارس العربية في العصور الوسطي الإسلامية وقد تنافس السلاطين والولاة وأبناء الأسر الثرية في إنشاء المدارس الدينية بدافع الإخلاص للدين ، فكانوا يقفون لها ما يلزم ويسهلون للناس تلقي العلوم النقلية منها وجعلوا في كل مدرسة خزانة كتب ، كما كانوا يقدمون التسهيلات للطلاب .

لقد كان المنهج التعليمي في المدارس الدينية ينظم على ثلاث مراحل وهي:
السطوح، والفضلاء، والخارجية (البحث الخارجي)، فالمرحلة الأولى: تشمل دروس اللغة العربية والبلاغة والمنطق. أما مساق الدروس في المرحلة الثانية: فيركز على درس المنهج والفقه وعلى الطالب أن يدرس مختلف المناهج التي توصل إلى معرفة الأدلة والثبوت والأصول والشرائع والفروض، ثم ينتقل الطالب بعد انتهاء هاتين المرحلين إلى المرحلة الثالثة : الخارجية وليس في هذه المرحلة كتب خاصة معتمدة، إنما يحضر الطلاب درسا ومحاضرات عامة يلفيها علماء كبار لهم شهرة دينية وفكرية بعدها يمنح الطالب الإجازة العلمية التي تجيز له التدريس متقبلا بما اجيز فيه.

قامت المدارس الدينية وخاصة في بغداد والبصرة والنجف والموصل وسامراء بدور كبير في الحفاظ على اللغة العربية والتراث العربي الإسلامي، كما أنها استطاعت أن تلبي احتياجات المجتمع العراقي حتى القرن التاسع عشر، حيث برز من خريجي هذه المدارس عدد من العراقيين الذين لعبوا دورا كبيرا في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية آنذاك.

ومن مدارس بغداد في عهد الحكم العثماني مدرسة الأمام الأعظم، والمدرسة المرادية ، ومدرسة جامع الأحمدية ومدرسة السليمانية ومدرسة جامع الخاتون، والمدرسة القادرية، أما ابرز المدارس الدينية في الموصل خلال هذه الفترة فهي المدرسة الاحمدية ، ومدرسة يحيى باشا، والمدرسة اليونسية، ومدرسة الجامع النوري، والمدرسة الخزامية، والمدرسة الامينية، والمدرسة الجرجسية. ومن مدارس البصرة: المدرسة الحللة، والمدرسة الرحمانية، والمدرسة السليمانية، وفي النجف استحدث مدرسة الملا عبد الله، والمدرسة الغروية، ومدرسة المعتمد، ومدرسة القزويني، ومدرسة الشيخ مهدي ال كاشف الغطاء، كما انتشرت المدارس الدينية في الليمانية وكركوك واربيل والحلة وغيرها من المدن العراقية. لكن المؤسسات التعلمية الدينية فقدت اهميتها بعد تأسيس المدارس الرسمية الحديثة، على النمط الاوربي، فقل اقبال الطلاب عليها، وصار عدده يتناقص وتأثيرها يضعف في

المجتمع. ومع هذا فقد ظللت تعمل جنبا إلى جنب مع مؤسسات التعليم الرسمي الحديثة، وتشير الاحصائيات الى إن عددها في العراق في اواخر العهد العثماني بلغ (٤٩) مدرسة دينية.

أما التكايا، فهي مؤسسات دينية وتعليمية، وقد حظيت بالاهتمام من لدى السلطات العثمانية والولاة العثمانيين، لكونها تعد من المؤسسات الاجتماعية والخيرية التي كانت مأوى للفقراء والطلاب الدراويش، فقد كان يلجأ إليها عادة المتزهدون من الصوفية، ونحبس لها اوقاف عديدة من قبل مؤسسيها، واصحابها ومريديها، وتقوم في كثير من الاحيان بوظائف المسجد والمدرسة نفسها كما قد تتخذ فندقا للمسافرين من الطلبة والمتزهدين حيث تقدم الطعام لهم فى اوقاتها الخاصة، واصبحت في بعض الاحيان تؤوي الكسالى والعاطلين من الناس. وهد كثرت التكايا في هذه الفترة لانتشار روح التصوف لانتشار روح التصوف والزهد بين الناس بسبب سوء الاوضاع العامة التي كانوا يعيشونها، ولعل من ابرز التكايا في هذه الفترة العراق، رباط الشيخ محمد بن السكران (ت٦٦٧هـ/ 1268) ورباط الشيخ عبد القادر الكيلاني ،ورباط العميد، ورباط حسن باشا، بالجانب الغربي من بغداد، ورباط مالك بن دينار،في البصرة ، وتكية الحاج محمد الهندي، وتكية حسن الحبار، وتكية الشيخ عبد الواحد وغيرها في البصرة . وقد انتشرت التكايا ، وبكثرة في العراق خلال العهد العثماني ،منها التكايا النقشبندية ، والتكايا البكتاشية والتكاية القادرية .

٢. المؤسسات التعليمية الحديثة.

ظهرت في الدولة العثمانية منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، محاولات إصلاحية عديدة تناولت أجهزة الحكم والمؤسسات المختلفة وفي مقدمتها الجيش لذلك فإن أقدم المدارس الحديثة التي تأسست، كانت المدارس العسكرية ثم ظهرت بعد ذلك المدارس الملكية أى المدنية، مما يدل على أن إنشاء المدارس الحديثة لم يتم وفق تدريب منطقي بل تم وفق تدريب عملي ينبثق عن تطورات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

تؤرخ بدايات التعليم الرسمي الحديث في الدولة العثمانية بالفترة الواقعة بين ١٧٩٣ـــ١٧٩٥م حيث انشأ السلطان سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧م) عددا من المدارس العسكرية تدرس فيها العلوم الحديثة، وفي عهد السلطان محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩م) أنشأت مدرستان عسكريات عاليتان احدهما للطب والأخرى للهندسة ، وفي حقل التعليم المدني أسس السلطان عددا من المدارس الابتدائية والإعدادية . كما حدث عدة تغيرات في بنيان التعليم العثماني استهدفت تحديثه و انتزاعه من ايدى رجال الدين ووضعه تحت إشراف الدولة ، كما أصدرت سلسلة من الإجراءات المؤدية إلى نشر التعليم، إلا أن المشاكل السياسية والعسكرية والمالية التي واجهت الدولة آنذاك لم تسمح إلا بإنشاء عدد قليل من المدارس، لهذا أفسحت السلطات العثمانية المجال للإرساليات التبشيرية الأجنبية المختلفة في الولايات العثمانية منها الولايات العراقية لإنشاء مدارس خاصة بها .

في حركة الإصلاحات العثمانية لم تترك أثارا واضحة في العراق إلا في عهد الوالي مدحت باشا (١٨٦٩-١٨٧٣م) ، ويعد من ابرز رواد الإصلاح المتنورين في الدولة العثمانية آنذاك .

المحاضرة الثالثة عشر

لم تكن خطوات مدحت باشا التعليمية سوى البدايات الأولى لوضع أسس نظام التعليم الرسمي الحديث في العراق وقت التطرق إليه سابقا ففي عام ١٨٧٣م أسس خليفة الوالي رديف باشا (١٨٧٣-١٨٧٤م) أول مدرسة إعدادية زودت بالمدرسين ومعظمهم من ضباط الجيش، أما المدارس الابتدائية فإنها لم تنل من السلطة العثمانية الاهتمام الكافي، وقد يرجع ذلك إلى قلة الامكانات الفنية والمالية لنشر هذا النوع من التعليم على نطاق واسع كما أن نقص المعلمين كان سببا أخر ، وقد واجهت سياسة إهمال المدارس الابتدائية انتقادات عنيفة على صفحات الجرائد المحلية، إذ شعر العراقيون بأن ما فتح في بلادهم من مدارس ليس كافيا لذلك طلبت الكتاتيب تقوم آنذاك بمهمة التعليم الابتدائي، أما مدارس ، أما مدارس البنات فلم تنل من الحكومة في هذه الفترة أي اهتمام يذكر فقد كانت العادة أن تقبل البنات الراغبات في التعليم في مدارس البنين الابتدائية.

لقد حظي التعليم منذ عام ١٨٨٠ م باهتمام ملحوظ، إذ تأسست بضعة مدارس رسمية خارج بغداد، وتأسست مجالس للمعارف تضم مديرا للمعارف، وبضعة موظفين بينهم المحاسب والكاتب وأمين الصندوق كما تألفت لجان للمعارف في بعض الالوية والاقضية.

لم يكن معظم الموظفين الذين أرسلتهم وزارة المعارف العثمانية لإدارة شؤون المعارف في الولايات العراقية من ذوي الكفاية والقدرة، بل كانوا على حظ قليل من المعلومات والثقافة، وقد اثر ذلك بدون شك حسن سير العملية التعليمية، إذ لم تكن دوائر المعارف جديرة بتحميل ما يتطلبه التعليم من الواجب والمسؤولية.

لقد شهدت الفترة التي تبدأ بسنة ١٤٨٩ اهتماما بإنشاء المدارس الابتدائية خاصة بعدما أدرك المسؤولون بان هذه المدارس هي الأساس في نظام التعليم الرسمي لذلك فتحت أربع مدارس ابتدائية في بغداد هي مدارس: الحميدية، جديد حسن باشا، العثمانية، الكرخ ، وتأست بضعة مدارس ابتدائية في الموصل والبصرة.

كما تأسست في هذه الفترة مدارس خاصة (أهلية وأجنبية) منها المدارس التي أنشأتها المؤسسات التبشيرية وازداد الإقبال على هذه المدارس بعد أن دخلت اللغة العربية والعلوم الحديثة ضمن برامجها الدراسية المقررة، وكانت هذه المدارس تتلقى مساعدات مالية من بعض الحكومات الأوربية وخاصة بريطانيا وفرنسا، وعلى الرغم من بعض الجوانب السلبية تلك المدارس والمتمثلة بالارتباطات السياسية الأوربية، إلا إنها أسهمت في دفع الحركة التعليمة في العراق، كما كانت حلقة وصل بإنجازات الحضارة الغربية الحديثة.

لقد شهدت الحركة التعليمية في العراق قبل الانقلاب الدستوري العثماني ٢٣ تموز ١٩٠٨. أحراسا مهمة لعل في مقدمتها تأسيس أول مدرسة رشدية حديثة للبنات سنة ١٨٩٩م في بغداد، وقد سجلت فيها عند افتتاحها (٩٥) طالبة ، ثم فتحت بعد مدارس مماثلة في الموصل والبصرة . أما منهج هذه المدارس فكان يتألف من تعليم أصول الدين، والقران الكريم، والحساب، والجغرافية، والتاريخ، واللغات التركية والعربية والفرنسية ، هذا فضلا عن تدريبهن على النقوش والتطريز وحسن الخط ،

وقد وجدت السلطات التعليمية صعوبة كبيرة في تهيئة المعلمات لهذه المدارس فاستفادت من زوجات الضباط والموظفين الأتراك وزوجات بعض الأجانب وخاصة في تدريس اللغات والموضوعات العلمية.

أما الحدث الثاني ، فهو فتح دور للمعلمين في بغداد والموصل والبصرة وذلك اثر التوسع الذي حدث في التعليم الابتدائي ، وظهور الحاجة إلى ملاكات تعليمية وكانت مدة الدراسة في هذه الدور ثلاث سنوات بعد المرحلة الرشدية ثم زيدت إلى اربع سنوات، وابرز الدروس في دور المعلمين أصول التدريس والرياضيات والتاريخ والعلوم الطبيعية ، وثمة حدث ثالث يتعلق بفتح مدرسة (كلية) للحقوق في ايلول عام ١٩٠٨ بعد ان شعرت السلطات بحاجتها إلى حقوقيين وإداريين مؤهلين علميا.

وبعد الانقلاب الدستوري ٢٣ تموز ١٩٠٨م ، شهد العراق حركة محدودة النطاق على الصعيدين الرسمي والشعبي لإنشاء المدارس الحديثة، فعلى الصعيد الرسمي أظهر الاتحاديون اهتماما بشؤون التعليم واتخذوا من المدارس وسيلة لنشر أفكارهم ومبادئ جمعية الاتحاد والترقي (الحزب الحاكم آنذاك) ، قد صدرت الأوامر من وزارة المعارف بتعيين حسين رفيق مديرا لمعارف ولاية بغداد بعد أن بقى هذا المنصب شاغرا منذ عام ١٨٩٨م وكان شغل بالوكالة ، كما تم فتح العديد من المدارس الابتدائية والرشدية ، وقد شهد تعليم البنات توسعا إذ فتحت مدارس ابتدائية للبنات في مناطق عديدة منها بغداد وعنه والسماوية والكاظمية وخانقين وكربلاء والنجف والمحلة والديوانية وفي عهدهم حظيت قضايا الإشراف التربوي بالاهتمام كما دخل النشاط اللا صفي إلى المدارس الرسمية في العراق لأول مرة، وبعد عام ١٩٠٨م دخلت مادة الرياضة الدينية إلى المدارس الرسمية، وقد عرف العراقيون الكشافة عام ١٩٠٩م.

أما على الصعيد الشعبي أدرك العراقيون حاجة بلدهم الملحة إلى المدارس، لذلك أربطت حر كة الدعوة إلى نشر التعليم بحركة إثارة الوعي القومي العربي ذلك أن هذه الحركة تهدف إلى تحقيق أمرين أولهنا إحياء تراث العرب الثقافي وخاصة اللغة العربي، وثانيهما:

بعث كياتهم السياسي. ولقد لعبت طبقة المثقفين العراقيين التي نمت فى العقدين الاخيرين من الحكم العثماني وتألفت من الضباط الموظفين والمحاميين والأطباء والمعلمين و طلبة المدارس العالية ورجال الأدب والثقافة دورا كبيرا في هذا الاتجاه الذي يبرز بشكل واضح في تأسيس مدرستي (تذكار الحرية) في البصرة ، (والترقي الجعفري العثماني) في بغداد .

اتسعت حركة المطالبة الشعبية بتأسيس المدارس وجعل لغة التدريس فيها العربية وقد اتخذت هذه الحركة من الصحافة والمجالس العمومية للولايات ومجلس المبعوثان (النواب) ميادين لإثارة هذه المطالب الحيوية، وقد اضطرت السلطات التعليمية إلى اتخاذ بعض الخطوات لرفع كفاءة الجهاز التعليمي في العراق وتحقيق بعض الإنجازات في مجال تنظم التعليم، لكنها أطلقت العنان أمام المؤسسات الأجنبية لتأسيس المدارس واشترطت فقط عليها الحصول على الرخصة الرسمية وقد تأسست

في هذه الفترة بضع مدارس أجنبية (فرنسية وإيرانية وألمانية وأمريكية) في مناطق مختلفة من العراق. كما التفتت إلى الكتاتيب فأمرت بإغلاق معظمها على أساس أن أماكنها مغايرة لقواعد حفظ الصحة والتعليم فيها ليس على أصول مرعية ، ودعت إلى نقل تلاميذ تلك الكتاتيب إلى المدارس الابتدائية ، وشكلت لجنة تتولي أجراء امتحان للراغبين في فتح كتاتيب لتعليم الصبيان القرآن الكريم والخط والحساب. وفي هذه الفترة عين ناظم باشا واليا على بغداد في نيسان١٩١٠.

المحاضرة الرابعة عشر

ومنح صلاحيات واسعة شملت ولايتي الموصل البصرة، وفي عهده تنامت الدعوة إلى نشر التعليم وجعله في المدارس الابتدائية باللغة العربية وتحملت الصحف عب» المطالبة بذلك ونذكر من هذه الصحف جريدتي الرقيب وصدى بابل في بغداد وجريدتي نينوى والنجاح في الموصل، ولم يبق ناظم باشا في منصبه طويلا إذ استدعى إلى اسطنبول في شباط ١٩١١ م وعين حمال بك واليا على بغداد في ٣٠ اب عام ١٩١١م .

نشر جمال بك بيانا حول الوضع في العراق ، وأشار إلى التعليم مؤكدا عزم حكومته على إصلاح المدارس الرسمية وتطويرها، وفي عام ١٩١٢ م أصدرت وزارة المعارف قرارها بالموافقة على أن يكون التدريس في المدارس الابتدائية باللغة العربية، إلا انها سرعان ما تراجعت عن قرارها، وعندئذ ازدادت حدة المعارضة لجمعة الاتحاد والترقي ولفلسفتها القائمة على المركزية وتتريك العناصر التي تتألف منها شعوب الدولة العثمانية، وقد اكتشفت السلطات المحلية عام ١٩١٢ نشاطا سياسيا سريا بين طلاب كلية الحقوق لذلك قرر الوالي جمال بك غلق الكلية لكن محاولته هذه واجهت معارضة شديدة، فقد احتج عدد من مثقفي بغداد وطلاب الكلية الذين ألفوا جمعية باسم (جمعية حقوق بغداد) للدفاع عن مستقبل كليتهم كما أرسلوا برقيات احتجاج إلى المسؤولين غي اسطنبول.

كشف الاتحاديون عام ١٩١٣ م وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى عن سياستهم التركية المتعصبة الرامية الي محور الشعور القومي غير التركي ، وقد اثارت هذه السياسة ردود فعل معاكسة عند العرب، إذ نبهتهم إلى كيانهم الثقافي والسياسي واتخذت ردود الفعل تلك إشكالا عديدة، ومنها تأسيس تنظيمات سرية على الصعيد. الصحف سلسلة من المقالات التي تنتقد السياسة التعليمية العثمانية ، فقد كتب سليمان فيضي مقالات عديدة في جريدة الدستور البصرية عام ١٩١٣م، أشار فيها إلى بعض الجوانب السلبية في التعليم، ومنها عدم العناية بتدريس اللغة العربية وإرهاق الطلاب بكثرة الدروس المعطاة باللغة التركية ، وزيادة عدد المعلمين الأتراك وترجيح المحسوبية في اختبارهم على الكفاءة وكثرة الكتب في المرحلة الابتدائية، إذ تبلغ احد عشر كتابا مدرسيا هذا بالإضافة شهد تعليم البنات توسعا إذ فتحت مدارس ابتدائية للبنات في مناطق عديدة منها بغداد وعنه والسماوية والكاظمية وخانقين وكربلاء والنجف والمحلة والديوانية وفي عهدهم حظيت قضايا الإشراف التربوي بالاهتمام كما دخل النشاط اللا صفي إلى المدارس الرسمية في العراق لأول مرة، وبعد عام ١٩٠٨م دخلت مادة الرياضة الدينية إلى المدارس الرسمية، وقد عرف العراقيون الكشافة عام ١٩٠٩م.

أما على الصعيد الشعبي أدرك العراقيون حاجة بلدهم الملحة إلى المدارس، لذلك أربطت حر كة الدعوة إلى نشر التعليم بحركة إثارة الوعي القومي العربي ذلك أن هذه الحركة تهدف إلى تحقيق أمرين أولهنا إحياء تراث العرب الثقافي وخاصة اللغة العربي، وثانيهما:

بعث كياتهم السياسي. ولقد لعبت طبقة المثقفين العراقيين التي نمت في العقدين الاخيرين من الحكم العثماني وتألفت من الضباط الموظفين والمحاميين والأطباء والمعلمين و طلبة المدارس العالية ورجال الأدب والثقافة دورا كبيرا في هذا الاتجاه الذي يبرز بشكل واضح في تأسيس مدرستي (تذكار الحرية) في البصرة ، (والترقي الجعفري العثماني) في بغداد .

اتسعت حركة المطالبة الشعبية بتأسيس المدارس وجعل لغة التدريس فيها العربية وقد اتخذت هذه الحركة من الصحافة والمجالس العمومية للولايات ومجلس المبعوثان (النواب) ميادين لإثارة هذه المطالب الحيوية، وقد اضطرت السلطات التعليمية إلى اتخاذ بعض الخطوات لرفع كفاءة الجهاز التعليمي في العراق وتحقيق بعض الإنجازات في مجال تنظم التعليم، لكنها أطلقت العنان أمام المؤسسات الأجنبية لتأسيس المدارس واشترطت فقط عليها الحصول على الرخصة الرسمية وقد تأسست في هذه الفترة بضع مدارس أجنبية (فرنسية وإيرانية وألمانية وأمريكية) في مناطق مختلفة من العراق. كما التفتت إلى الكتاتيب فأمرت بإغلاق معظمها على أساس أن أماكنها مغايرة لقواعد حفظ الصحة والتعليم فيها ليس على أصول مرعية ، ودعت إلى نقل تلاميذ تلك الكتاتيب إلى المدارس الابتدائية ، وشكلت لجنة تتولي أجراء امتحان للراغبين في فتح كتاتيب لتعليم الصبيان القرآن الكريم والخط والحساب. وفي هذه الفترة عين ناظم باشا واليا على بغداد في نيسان١٩١٠.

هذا فقد حرص حكمت سليمان على استمرار النشاط التعليمي حتى ١١ آزار ١٩١٧ حين احتل الانكليز بغداد أما مدارس البصرة فقد أصبحت بعد الاحتلال البريطاني لها في تشرين الثاني ١٩١٤م تحت سيطرة السلطات المحتلة والتي استعانت ب (جون فان ايس) مدير مدرسة الرجاء العالي الأمريكية للبنين والتي فتحتها البعثة العربية التبشيرية الأمريكية ١٩١٢م لإدارة شؤونها .

واصلت مدارس الموصل نشاطها التعليمي في وسط ظروف الحرب القاسية بعد احتلال البصرة وبغداد وكانت الظاهرة المميزة في تلك المدارس خلال هذه الفترة هي تنامي النشاط القومي العربي وخاصة في دار المعلمين، ومدرسة دار العرفان الابتدائية، فلقد اتخذ المعلمون القوميون من هاتين المؤسستين مكانا لنشر الفكرة وبث الشعور المعادي للاتحادين ، وقد استمرت هذه النشاطات السياسية حتى احتلال الانكليز للموصل في صفر تشرين الثاني ١٩١٨م.

كان النظام التعليمي في العراق مركزيا حيث كانت وزارة المعارف هي المسؤولة عن مفردات المنهج لكل مدرسة، وعن جداول الدروس الأسبوعية والكتب المدرسية، وتعيين مدراء المدارس ومعلميها وتهيئة ميزانية المعارف، ولم يكن لمجالس المعارف إلا الاسم، ، ومما يلاحظ عليها أن معظم أعضائها كانوا من رجال الدين او الشخصيات المحافظة ، باستثناء بعض الفترات التي كان فيها من أعضاء المجالس رجال متنورون أمثال جميل صدقي الزهاوى، وفهمى المدرس، وحكمت سليمان، لذلك لم تتح لتلك المجالس ممارسة وظيفتها في ترقية المعارف في العراق وفقا لما تقتضيه تطورات العصر، وقبل تأسيس دور المعلمين في العراق كان معظم

المعلمين من الأتراك ومنهم من ذوي القابليات العلمية المحدودة، فضلا عن كونهم لا يحسنون غير اللغة التركية، لذلك حدثت النفرة بينهم
وبين تلاميذهم فقل إقبال الأهالي على المدارس الرسمية التي كانت تدرس باللغة التركية ، وازدياد الإقبال على المدارس الأهلية لعنايتها آنذاك باللغة العربية وارتفاع المستوى التعليمي فيها هذا من جهة ومن جهة اخرى لم يطرأ على المواقع التعليمي في العراق الا تغييرات بسيطة ومحدودة ذلك أن المؤسسات التعليمية الحديثة على قلتها حيث لم تزد في السنة الدراسية ١٩١٣-١٩١٤م عن (١٦٨) مؤسسة فيها ٧٩٨٨ طالب و(٤٠٢) مدرسا، وظلت متركزة في المدن الكبيرة والمراكز الحضرية التي لم يشكل سكانها عام ١٩٠٥م إلا ٢٤% من سكان العراق البالغ عددهم آنذاك ٢,٢٥٠,٠٠٠ نسمة في حين يشكل سكان القرى والأرياف ٧٦% من سكان العراق وهكذا حرم هؤلاء من التعليم حرمانا كبيرا، فضلا عن ذلك ان المناهج والكتب المدرسية السائدة لم تكن تمت بصلة إلى واقع المجتمع العراقي، كما ان ، الصفة النظرية الأدبية غلبت عليها، إذ ظل الهدف من التعلم خلال العهد العثماني هو اعداد الموظفين للدولة. كما لم يكن للتعليم في هذه المرحلة فلسفة تربوية، وان مساهمة الدولة في مجال نشر التعليم بين السكان كانت ضعيفة، ليس من حيث انتظام الدراسة والمستوى التعليمي، إذ كانت المدارس الرسمية اقل انتظاما ومستوى عما كانت عليه المدارس الخاصة، وإنما من حيث تفوق عدد تلاميذ المدارس الخاصة على مجموع تلاميذ المدارس الرسمية، فقد ضمت المدارس الابتدائية الخاصة مثلا ١٩١٤ م (٨٠٢٠) تلميذا و(٢١٦٣) تلميذة، ولم يكن عدد تلاميذ المدارس الرسمية بمختلف مراحلها يزيد عن (٧٣٨٧) تلمذا '٦٠٠ تلمذة، وهذا يكشف مدى تقصير وإهمال السلطات العثمانية في مجال التعليم ويمكن أن نشير كذلك إلى أن اغلب المدارس الرسمية على قلتها تتركز في مراكز المدن،وهي في الغالب كذلك مخصصة للبنين دون البنات. فعلى سبيل المثال كان قبيل الحرب من بين الـ ١٦٠ مدرسة ابتدائية ١٣ مدرسة للبنات، منها ٧ فى بغداد و٤ في الموصل و٢ في البصرة.

المحاضرة الخامسة عشر

لم يكن للعراقيين خلال هذه الفترة نصيب ملحوظ من البعثات العلمية فبين سنتي ١٩٠٠-١٩١٧ م لم يتخرج من الجامعات الأجنبية سوى ١١ طالبا فقط تخصصوا في حقوق الطب والصيدلة والقانون لذلك اتجه الأثرياء من السكان إلى إرسال أولادهم إلى الخارجة لا كمال تحصيلهم العالي. وقد بلغ عدد العراقيين المتخرجين من الكليات العثمانية غير العسكرية، في اسطنبول بين ١٩٠٠-١٩١٧ م (٦٠) متخرجا تخصص ٢٧ منهم في الطب ،٢٥ في القانون و٥ في الادارة و٣ في الهندسة. وبالرغم من تعدد قنوات التعليم في العراق فإن عدد المتعلمين في العراق لم يزد على /١ من مجموع السكان عند انتهاء الحرب العالمة الاولى وهذه النسبة الضئيلة جدا استطاعت نتيجة عوامل داخلية وخارجية ان تكون تكون مع بعض الضباط في مختلف، النواة التي تجمعت حولها الحركة العربية القومية في العراق قبيل الحرب العالمية الاولى وفي السنوات اللاحقة. كذلك ان مواطن الضعف والقصور والنقص التي كان عليها الجهاز التعليمي في العراق ابان عهد الاحتلال العثماني.

واستمرت خلال الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨م وهذا خلف تركة ثقيلة، كان على المسؤولين الوطنيين العراقيين بعد تشكيل الدولة الحديثة أواخر ١٩٢٠ م أن يواجهوها وان يبذلوا جهودا عظيمة من اجل بناء مؤسسة تعليمية وطنية متطورة تلبي احتياجات السكان وترتفع بمستواهم التعليمي والثقافي.

مدارس الطوائف الديني:

أقيمت هذه المدارس من قبل الأغنياء، وأرباب الخير من غير المسلمين، وكانت تدار من قلهم، كما كانت تتخذ عادة أحدى الغرف الملحقة بالكنائس كمدرسة يقوم الرهبان بالتدريس بها. وكانت هذه المدارس تقسم على قسمين:

أولا: المدارس الملية وتعود ملكيتها إلى الطوائف الدينية المسيحية بالدرجة الأساسية وتغطي نفقاتهم من الأوقاف المخصصة لها ، وتدار من قبل الطوائف والبرطرياركيات التي تتبعها.

ثانيا: المدارس الخاصة وهي التي تقام من قبل الأشخاص بالنسبة للمسيحيين أسسوا مدارس خاصة بهم في ولاية بغداد، وكانت ملكيتها تعود إلى الأقليات المسيحية البارزة في بغداد (السريان، والكلدان، والارمن). فقد أسست الطائفة المسيحية في بغداد عام ١٨٧٠ مدرسة لتعليم الأطفال ، وتم جمع المبالغة الخاصة بها من قبل بعض أعيان المسلمين والمسيحيين، كما ساهم بالتبرع وكيل القنصل الفرنسي في بغداد والقنصل الانكلزى، وطيب القنصلية الإنكليزية. وكانت هذه أول مدرسة تقيمها طائفة غير إسلامية في بغداد. كما توالت بعد ذلك اقامة المدارس غي مدينة بغداد، إذ أسس الكلدان مدرسة رشدية (متوسطة)، في بغداد سميت باسمهم في عام ١٨٧٦، أما السريان فقد أسسوا مدرستهم في عام ١٨٩٥ وكانت هي الأخرى رشدية (متوسطة)، كما أسس الأرمن لهم مدرسة في بغداد عام ١٨٩٨. كما اقام الأرمن مدرسة ابتدائية للإناث عام ١٨٩٤. وكانت هذه المدارس تقوم بتدريس اللغات العربية والتركية والفرنسية والإنكليزية، وكان معظم معلميها من رجال الدين ويمثلون الطائفة التي

تمتلك هذه المدارس، اما معلمو اللغة التركية فكانوا أتراكا هذا وان المدرسة الكلدانية تدرس أحيانا اللغة الكلدانية والمدرسة الارمنية تدرس اللغة الارمية. وقد انتعشت هذه المدارس بعد انقلاب 1908 فتوسعت توسعا كبيرا.
وكانت مدارس الأرمن تتكون من فسمين ابتدائي ورشدي، أما مدارس الإناث عندهم فكانت تعلم طالباتها فضلا عما سبق الخياطة والنقش.
وفي الوقت الذي كانت فيه المدارس المسيحية محدودة في ولاية بغداد بسبب قلة عدد أفراد الطائفة المسيحية، كان عددها في ولاية الموصل أكثر من ذلك بكثير. فهي لم تتمركز كما هو الحال في بغداد في مركز الولاية بل انتشرت في مختلف أرجاء الولاية، لاسيما في الأماكن التي يشكل المسيحيون فيها نسبة تتمكن من إقامة مدرسة، وكان تحمل تكاليفها يقع على عاتق الطائفة. فقد كانت هناك مدارس للكلدان والسريان الكاثوليك، والسربان الارثوذكس، والبروتستانت، واليعاقبة،والإباء اليسوعيين(الجزويت)، وهناك أيضا مدارس مسيحية للكلدان في دهوك.
اما اليهود فلم يدخل هم أيضا أطفالهم في المدارس الرسمية العثمانية، بل أقاموا مدرسة خاصة بهم، أسستها جمعية إلاليانس اليهودية، عام ١٨٦٥، وكانت مدرسة رشدية ويحتمل أن قسما ابتدائيا كان ملحقا بها. وكانت المدرسة تدرس اللغات الفرنسية والإنكليزية والعربية والعثمانية والعبرية. كما أسست جمعية الاليانس اليهودية مدرسة أخرى خاصة .